امير لبنان

الفصل الاول

النصح بالاخلاص

هضاب لبنان آكام يعلو بعضها بعضاً من ساحل بحر الروم الى قنن صنين مرتصفة على طول البلاد من طرابلس الشام الى ساحل صيداء . رصّعتها القرى والدساكر ووشحتها حراج الصنوبر والبلوط وتحللتها اودية وبجوات تنساب فيها الجداول والغدران وقد قامت على جوانبها الحدائق والبساتين من التوت والزيتون والتين والرمان . ودُبجت ارضها بطرائق الديباج من البرجس والحرام والاقحوان . بلاد المروّة والصيافة والشهامة والعفاف . مضى على سكانها دهور طوال وهم يغرسون كرومهم ويجنون ثمارهم ويذودون عن ذمارهم بالبيض الصفاح جانبهم عزيز وحرزهم حريز . يمرّ بهم العراة من مصر وبابل واليونان والرومان كالطيور القواطع تلتهم ما تراهُ وتغادر البلاد واهلها فيعودون الى زرعهم وضرعهم يغرسون البساتين ويزرعون الحقول ويسومون القطعان ويبنون البيوت ويتيدون القصور آمنين ناعمي البال الى ان يمتاهم عازٍ آخر كما تنتاب الاوبئة البلدان فيطاهرونهُ او يتناغبونهُ حسب مقتضى الحال

لما كثر مرور العراة في بلاد الساحل بين بيروت ولبنان اخذ الامراء آل ارسلان من التوف الى الغرب وبرلوا قرىً تطلّ على طريقهم لاستكشافها فسُمّيت التويفات وبوا فيها دورهم حيث ضاءهم سلطان دمشق الملك المؤيد المحمودي الحاصكي منذ خمس مئة عام وبرا على الامير سيف الدين تلاتة ايام

في دار من هذه الدور وقف الامير احمد صباح يوم من اواخر عام ١٨٥٩ وقف في رواق يطلّ على بحر الروم وغابة الزيتون المعروفة بصحراء التويفات . وكانت سفن الصيادين قد خرجت من بيروت للصيد ونشرت شراعها لنسيم الصبا وقد هب صباحاً من البر الى البحر قبل اشتداد الهجير فجازت خلدة وشقت صدر الماء فارغى وازبد . ونشرت الغزالة اشعة

الرمال بين الصحراء والبحر فعصفرتها وعبثت بما تجمع على اوراق الزيتون من ندى الليل رضاباً لطيفاً كالماس الحبين

وقف الامير هنيهة يقلب طرفهُ في ما يراهُ من جمال الطبيعة ويستنشق نسيم الصباح صغي الى تغريد الطيور وهمَّ بالخروج للصيد ثم عاد الى التفكير في كتاب ورد عليهِ في الليل ئت من الكولونل روز قنصل انكلترا في بيروت وقال في نفسهِ لامرٍ دعاني القنصل اليهِ بدَّ من تلبية دعوتهِ . ولم يستغرب دعوة القنصل لهُ وتخصيصهُ اياهُ دون امراء عمهِ لانهُ ن يعتمد عليهِ بعد ابيهِ والكتاب ليس من القنصل نفسهِ بل من ترجمانهِ . ثم دحل غرفتهُ تقد الكتاب وقرأهُ ثانية فاذا هو يقول فيهِ

"الجناب الاكرم والملاذ الافخم الامير احمد ارسلان المحترم دام بقاهُ

بعد اداء واجب التحية والاكرام اعرض ان سعادة القنصل امرني كي اكتب اليكم وكم الى دار القنصليَّة غداً صباحاً للمذاكرة في بعض الشؤون الهامَّة والمرجو تشريفكم في الوقت يّن وادام الله بقاءكم"

فقال في نفسهِ ما هذه الامور الهامَّة يا ترى وماذا لم يكتب القنصل نفسهُ اليَّ بالفرنسويَّة يظن انني اكون آلة في يدهِ كما كان المرحوم والدي تلك ايام مضت ولن تعود . نعم ان لترا وفرنسا ساعدتا دولتنا على الروس في حرب القرم ولكن تلك المساعدة لا تقضي عليها ستعباد وليس من صواب الرأي ان نجاري خورشيد باشا في ما طلبهُ ولكن لا يليق بنا نستميت الى هذا الحد

ثم نظر الى ساعتهِ ونادى مسروراً عبدهُ وامرهُ ان يشدَّ على جوادهِ ولبس بيابهُ بذلةً الجوخ الكحلي وطاقاً مزركشاً بالقصب وتقلد سيفهُ وهو لجدهِ الاعلى الامير جمال الدين هُ بهِ السلطان سليم الفاتح في مدينة دمشق يوم دخلها ظافراً . وتكبَّب قريبة صنعت لابيهِ بيت شباب صنعها لهُ اولاد نفاع من فضلات نعال الخيل المطرَّقة فجاءت مجوهرةً السيوف الدمشقية يطلق بها عشرين حوَّاشة معاً فتنطلق منها كالمدفع الرشاش ولا يستطيع للاقها الاَّ من كان ساعدهُ من الحديد مثل ساعدهِ . والقى على كتفيهِ برنساً ابيض من نسج شق ثم اعتلى صهوة جوادهِ ووضع فردين صغيرين في قربوصهِ وهما هدية لابيهِ من ابرهيم شا اهداهما اليهِ قبل واقعة اللجاة . وسار وامامهُ عبداهُ مسرور وسالم وهما بالعدَّة الكاملة كلٌّ منهما بطقان وزوج طبنجات وبندقية نظامية ابرهيمية من البنادق التي اقتنها جنود هيم باشا وهي عائدة الى مصر . فمرَّ في طريق متعرِّج بين البيوت والحوانيت وكانت نساء

لى اكتافهنّ او رؤوسهنّ والبراقع مسدولة على وجوههنّ
ا لينظرن طريقهنّ . فلما دنا منهنّ وقفنَ كاسرات الطرف
فون في حوانيتهم ويضعون اكفهم على صدورهم ويحيونهُ
الى السياح والناس ينظرون اليهِ شزرًا لان قلوبهم كانت
يوت وكان المجير قد اشتدّ وعلا صوت الصراصير فوقف
قي من الصنوبر الذي غرسهُ الامير فخر الدين المعني وهي
ميم باشا كالجبار بين الاطفال حتى اذا كثر رفس الجواد
ـّ في طريق الميدان فالباشورة . وعرف اصحاب الحوانيت
هِ لكنهم لم ينهضوا للسلام عليهِ لاعتقادهم ان اهالي لبنان
من نسل الملوك . ولا هو بادأهم بالسلام انفةً وعتوًّا . ودار
طريق المصيطبة الى بيت الكولونل روز قنصل الانكليز
بن عند الباب وامسكا بركاب جوادهِ فنزل عنهُ ونفح
كبيرة كواها تطل على حديقة غناء نسقت فيها اشجار
لورد والياسمين وكانت الغرفة مفروشة بالبسط الفارسيّة
من نسج دير القمر ومكتب كبير من خشب الجوز مطعم
كراسي انكليزيّة كبيرة مكسوة بالجلد البني امامها موائد
ورحب بهِ ثم أُتي بالقهوة ودار الحديث بينهما على شؤون
مير من ان نصارى المتن والعرقوب وزحلة ودير القمر قد
عمل لهم الاّ سبك الرصاص ولف الفشك فلا عجب اذا
يبلغني ان كسروان كلها متحفزة للثورة وان يوسف بك
ل ازرهُ واكدّ لهُ ان فرنسا لا تتخلى عن الموارنة بوجه
بلغني ان خورشيد باشا قال لكم مثل ما قال قنصل فرنسا
فلم اقابل خورشيد باشا . فقال القنصل نعم لم تقابلهُ انت
ت تكد ومضى اثنان منهم الى خلوات البياضة لهذا الغرض
ك من عواقب الثورة فادهُ اذا استفحل الخطب فلا يبعد
لا نرضاهُ لكم ولا للدولة العثمانية وامس كان عندي سعيد
ليس الخوف من عقالكم بل الخوف من جهالكم وانا اعلم

لماعتهم للعقال ولكن ما كل وقت يكون العتّال عي يقظة من امرهم
طالت المذاكرة نحو ساعتين حتى اذا حان وقت العداء دعا القنصل الامير للغداء معهُ
ن معهما شاب انكليزي اسمهُ السرهنري بدمونت في عربة مجورة لعربة الاستقبال وجلسوا
مداء يدخنون التبغ ويشربون القهوة ويتكلمون في مصلحة الجبل وتربية امرائهِ وسبب
ب بين اليزبكية والجنبلاطية وبين النصارى والدروز الى غير ذلك مما يهتم بهِ قناصل
ليز خاصة وكان كلامهم بالفرنسوية . وقد مرَّ السرهنري بحديث الامير احمد وطلب
ن يسمح لهُ بزيارتهِ في دارهِ بالشويفات فقال حبًّا وكرامة وان سمحت وفي آتي بنفسي
ب بك . فقال السرهنري اني لا اكتمك الى ذلك وسازورك بعد عدٍ مع احد قواسة
لية . ثم استأذن الامير احمد في الانصراف فودعهُ الكولونل روز والسرهنري بدمونت
ب القنصلية

ومرَّ وهو راجع في طريقهِ ببيت رجل اسمهُ الشيخ درويش ويكنى بابي نحر. وكان هذا
، قد رآهُ ذاهبًا الى دار القنصل فجلس في رواق بيتهِ ينتظر عودتهُ حتى اذا مرَّ بهِ قام
ودعاهُ لينزل ويشرب القهوة . واعتذر الامير عن النزول لفوات الوقت فقال لهُ لا بأس
لمرحوم والدك كان يشرفنا كلما نزل الى بيروت وبيتنا مستعد لقبول الزوّار وامس شرفنا
، والسرعسكر . وما زال بهِ حتى ترجَّل وصعد معهُ الى رواق كبير يطل على الطريق
لس قال لهُ الشيخ درويش يا سبحان الله انك جلست على الكرسي الذي كان يجلس
المرحوم والدك وهو الكرسي الذي يجلس عليهِ دولة الوالي كلما زارنا هات اخبرني اين
ت ولا تخفِ عني شيئًا فان المرحوم والدك كان يطلعني على كل اخبارهِ واسرارهِ وقد كان
صديقًا لهُ واوصاني لاكون صديقًا لك قل لي اين كنت . فقال الامير كنت في بيت
لونل روز لشغل خصوصي

فقال الشيخ اي نعم لشغل خصوصي اسمع يا ابني ولا تملّك الاجانب منك ولا تحد عن
ة ابيك رحمهُ الله ولماذا لم تذهب الى بيت الوالي مثل سائر مناصب الجبل

فقال الامير اني ذاهب اليهِ

فقال الشيخ احسنت احسنت وتفضَّل خذ القهوة . انظر ما اجمل هذه الفناجين فانها من
يني الحر اشتراها المرحوم والدي من دمشق الشام كل فنجان بعشرة فندقليات اذا رميتهُ
الارض لا ينكسر والظروف من صياغة اسطانبول فضة روباص وذهب بندقي والمرجان
ا على طبقة والظروف اشتريتها انا من اسطانبول اخذتها من الدلال بثمن بخس بالنسبة

لي باشا الصدر السابق وبيعت مع بعض التحف بعد ما قتل .
ها كانت للسلطان مصطفى . نعم كانت للسلطان مصطفى فاهداها
تريتها بمالي . كل ما عندي اشتريتهُ بمالي لاني اكره المباداة
نت الآن تشرب القهوة في فنجان من الصين وظرف كان يشرب
لهُ

هذا الرجل وجيهٌ للفخر والمباهاة ولذلك لقب انا نفر فلم يسوءهُ
ة على قدر الامكان فلم يكد يشرب القهوة حتى نهض وقال
بدّ لي من رؤية دولة الوالي

فانا اذهب معك اليهِ ولكن قد حانت صلاة العصر ولا بدّ لي
اترك الصلاة مطلقاً فعلى الطائر الميمون

ب اليهِ ان يشرفهُ الى الشويفات وركب جوادهُ وسار الى دار
ساعة دار فيها الحديث على شؤون الجبل وكان الوالي
يقال لهُ انتم سيف الدولة ولا غنى لنا عنكم ولا غرض لنا الاّ
كف يد الاجانب عنها ولا بدّ للدولة من ذلك مهما كلفها
يها مثل ابناء عمك

ع عن خاطر الدولة لان طاعتها فرض علينا ولكن يا حبذا لو
حرب اهلية

دهُ ولكن اذا كان لا بدّ من الحرب الاهلية فالدولة لا تتغاضى
ري ليفتك بالضعيف وقد ابنت رأيي بالاسهاب لشيخ العقل
لهُ لكم ولا اخفي عليك ان ترددك على القنصل لا يرضينا

ذي اعلمهُ ان دولة الانكليز من اشد الدول صداقة لدولتنا العلية
، ولكن ليس كل رجالها على رأي واحد

لامير ان مدة الزيارة انقضت فقام وودع فوقف لهُ الوالي
ستقبلهُ فيها على خلاف عادتهِ . وكان هذا الحديث باللغة
لما كان في الاستانة مع ابيهِ وهو يحسن التكلّم بها كما يحسن
قد اذن فركب جوادهُ وعبداهُ معهُ وسار راجعاً الى الشويفات
كان يفكّر في كلام القنصل المسهب وكلام الوالي الموجز

ل الجبل وما يمكن ان تأول اليهِ اذا نشبت فيهِ حرب اهلية تسفك فيها الدماء وتحرق . وراجع ما كان من نتائج الحروب الاهلية السابقة وكانها ضعف على ضعف وذلك على ال لا بدَّ لي من اتباع نصيحة التعقل وحمل اندعي حتى اتبعها . ووصل الى نهر وهو تائه في فيافي الافكار وحانت منهُ التفاتة فرأى سمرة جالسات وراء مطحنة تخفق وغض طرفهُ وقال سائرًا

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وانتشر ذهب الاصيل على ربى لبنان والبس الافق معلمًا من البرفير والارجوان

الفصل الثاني

بارقة الامل

في احوال الناس سرٌّ غامض لا ينطبق على قاعدة معلومة وهو الاتفاقات الكثيرة التي لي غير انتظار . يخطر على بالك رجل لم تره منذ سنين كثيرة وفي الساعة التي يخطر الك فيها تراهُ آتيًا لزيارتك كأن قوة روحية تقدمتهُ ووصلت اليك فأعلمتك بقدومهِ وتفتش عن عبارة قرأتها في كتاب فتقع عينك عليها حالما تفتح الكتاب وقد تفتش مرةً اخرى فلا تجدها الاَّ بعد العناء الطويل فكيف اتفق ان عثرت عليها في المرة الاولى وينشغل بالك بامر هام وترتبك فيهِ ولا ترى وجهًا لحلهِ ثم تقابل احد اصدقائك ا او رجلاً لا تعرفهُ ولم ترَهُ قبلاً فتجد عندهُ حل المشكل والخبر اليقين كأنهُ سُخر متك وقت حاجتك اليهِ

على هذا النمط كان الامير احمد في نظر السر هنري بدمونت فلم يكد يخرج من دار صليَّة حتى دخل السر هنري مكتبهُ وعاد الى اتمام الكتاب الذي شرع في كتابتهِ الى امهِ كرًا فيهِ خلاصة ما جرى لهُ يومًا بعد يوم من حين وصولهِ الى بيروت . وكان قد اخبر عن كل ما رآهُ وسمعهُ من حين قدومهِ وعن درسهِ جغرافية البلاد من بيروت الى صيداء بينهِ مكان الواقعة التي جُرح فيها جدُّهُ الاعلى كونت بدمونت لما اوفدهُ ملك الانكليز تب بقلب الاسد لفتح بيروت فقد عين مكان الواقعة بالتدقيق وكانت تقاليد عائلتهِ تجعلها ب نهر الدامور المعروف عند الاقدمين باسم تاميراس او داموراس حيث حدثت المعركة موية المشهورة بين انطيوخس ملك سورية ونيقولاوس قائد الجيوش المصرية فدارت الدائرة

ا الفا رجل وأخذ الفا اسير وعادت فلولها الى صيداء وذلك قبل
: . لكننهُ وجد ان شكل الارض هناك لا ينطبق على الوصف
عدو بل ينطبق على جهات خلدة حيث تكثر نواويس الحجر التي
برة بما جاء في دليل اورشليم من ان خلدة على اثني عشر ميلاً
م القديم وهو هلدوى ينطابق على الاسم الحديد فالواقعة حدثت
كهف من الكهوف التي قرب التويفات ولا بدَّ من ان تكون
خادمهُ ولف سدَّ باب الكهف الداخلي عليهِ بعد ان لفهُ بردائهِ
مير أحمد وعرف انهُ من امراء التويفات شعر كأن بارقةَ من
علم انهُ من طائفة الدروز اصحاب الطريقة السرية الخاصَّة بهم
جعل يسترق اللحظ و يتفرَّس في وجههِ . وكان الكولونل روز يعلم
والاثرية فاشار الى عائلة الامير وقال للسر هنري لا يبعد ان
ند التقى بجد الامير منذ سبع مئة سنة في ضواحي هذه المدينة
اف ان نتقاضياها الآن
اما الآن فاننا في جوار الامير والعرب يرعون الجوار ويحمون
، حماكم وضيف عليكم
هنري جاء هذه البلاد للتفتيس عن رفات جدهِ لانهُ توفي فيها
، اكثر رجالهِ وأسر من بقي منهم حيًّا وارجو ان تبذل جهدك

اني من الساعة في خدمتهِ بادل جهدي في تحقيق بغيتهِ
مروَّتهِ وكرم اخلاقهِ واتفق معهُ على ان يزورهُ بعد يومين ليريهُ
ب القديمة
لامور كلها لامهِ وهو يتعجب من هذا الاتفاق الغريب ويقول
ل لها : — فاذا عدت ومعي الونيقة وختم قلب الاسد عليها فلا
وبت ولا يبقى اعتراض لاقلين ولا لامها . اواه يا اماه لو تعلمين
د آليت على نفسي ان لا اكتب الى اقلين حتى اجد الوثيقة .
يها ختم قلب الاسد وانهُ وضعها على صدر سيدهِ لما لفهُ بردائهِ
خ العائلة وان باب المغارة الى جهة الشمال الغربي وقد سدها من

الداخل على اسلوب يظهر منهُ ان نهايتها عندك لا بد وان اهدي اليها ان شاء الله . ا
الامير شاب في نحو الرابعة والعشرين تموج على وجهه نوع الشهامة وعزة النفس وهو ي
الفرنسويَّة ولا بدَّ من انهُ يحسن لغتهُ العربيَّة و كولونل روز يكرمهُ كثيرًا وقال لي ان
كان من اخلص الناس لنا لكنهُ يخشى ان لا يكون متى ابيه لان الذين علَّموهُ
الفرنسوية اثروا في ذهنهِ فضلاً عن ان امهُ وآدابها تكفي هذا التأثير . ولا ادري
لا يسعى رجالنا في نشر اللغة الانكليزيَّة وتعليمها لابناء الامراء والعظماء كما يسعى الفرنس
في نشر لغتهم فاننا اذا فعلنا استفدنا تجارةً وسياسةً . وقد رأيت كثيرين هنا يتكلمو
الفرنسويَّة والايطالية ولم ارَ احدًا يتكلم الانكليزيَّة من ابناء البلاد غير اثنين او ثلاثة
احدهم يهتم بتعليم اللغة الانكليزيَّة غير بعض المرسلين الاميركيين . وسازور الامير به
واكتب اليك عن زيارتي لهُ بالتفصيل . ثم فصَّل لها كيفية سفرهِ من الاستانة العلي
بيروت لكنهُ لم يذكر لها شيئًا عن المهمة السياسية التي جاء لاجلها

وكانت الباخرة الفرنسويَّة على اهبة السفر فطوى الكتاب وارسلهُ مع مكاتيب القن
وركب هو والقنصل جوادين وخرجا للنزهة على رمل بيروت الى ان بلغا البحر ورأيا ا
الشمس وقد امتدَّت اصابع الشفق حتى بلغت الافق الشرقي وهو منظر بديع قرأ عنهُ
الكتب ولكنهُ لم يرهُ قبل الآن فقال ما اجمل هذا المنظر وما ابدعهُ للتصوير اين مص
الطبيعة يأتون هذه البلاد فيرون فيها كل يوم منظرًا بديعًا تعجز الوانهم عن تصويرهِ

فقال القنصل نعم هي كما تقول وفوق ما تقول ومتى جاء فصل الربيع لتعشقها تعشقً
هضاب اسكتلندا وجبال سويسرا شيئًا مذكورًا في جنب جبال لبنان وهضابهِ وكن
كيف صار اقرع اجرد من توالي المحن وهذه المدينة التي كانت من اعظم المدائن الرو
تكاد اعلامها تندرس ولولا الاصلاح القليل الذي نالها في زمن الدولة المصرية لصارت
بعد عين. اين ارز لبنان وبلوط باشان اين المعاقل والمصانع لا ترى مكانها غير اديرة الر
ومزارع الفلاحين . اما دور الامراء والمشايخ فلا تذكر في جنب ما كانت عليهِ قصور الا
في سالف الزمن . اين المدارس والمشاهد التي كانت ببيروت غاصَّة بها في عهد الرومان.
منها غير بعض الاعمدة الكبيرة مبثوثة بين الخرائب والانقاض دالة على عظمتها السالفة

فقال السرعسكري أو تبقى الحال على هذا المنوال

فقال القنصل كلا لان دوام الحال من المحال فان لم تقلع مساعينا احتلَّت فرنسا ا
كما تقدم وان فعلت فلا بدَّ لها من وضع حدٍّ لسوء الادارة

الفصل الثالث

الغداء على الغدير

شويفات قرية كبيرة تفضلها في غزارة مائها وكثرة بساتينها
بخامة مبانيها وهي قرية كفرشيما او قرية الفضة . نزلها الامراء
نزل الارسلانيون الشويفات . وبنى الشهابيون الدور الكبيرة
ن فيها وفي ما جاورها من رياض الغدير وهو نهر شتوي يفيض
يجف في الصيف حتى لا تبقى فيهِ نقطة ماء

امير من آل شهاب اسمهُ الامير عباس لم يتنصَّر مع اخوتهِ
م مثل اقاربهِ في حاصبيا ووادي التيم وكان عندهُ خطيب
لا يجادل اخوانهُ الاَّ بالتي هي احسن ولا منع زوجتهُ واولادهُ
ديدة التمسُّك بالنصرنية والاكرام لقسوسها . وكثيرًا ما قصدهُ
ثم انتهى الجدال بينهما بقولهِ لكم دينكم ولي ديني فيتركان
دخان الجبيلي والتنقيفي فان المطران كان مولعًا بالاول والامير
بالسعوط ومع المطران حقَّة مرصعة بالماس اهدتها اليهِ
براطور نبوليون الثالث لما زارهافي فرنسا فلم يكن يسعهُ الاَّ استساق
ونقديها الى الامير حتى يرى حجارة الماس على غطائها والامير
من صنع الصين لكن حلة شبقهِ كانت من الكهرباء وتحتها
عة بالذهب . والتبق نفسهُ تضيب طويل من الورد الاحضر
، وردًا كثيرًا في حديقة دارهِ لهذه العاية فلا تابت القصبة
ها قبلما تجف

ان وابنة اسمها سلمى وفي اليوم الذي مضى فيهِ الامير احمد
لونل روز قامت الاميرة سلمى وطالبت امها بوعدها وهو النزول
اء هناك لان مطر الخريف كان قد كسا الارض بساطًا
بَّجهُ بطراز معلَّم . فنادت امها جاريةً اسمها زهرة وقالت لها
الغدير وقولي للخزندار ان يرسل غداءنا الى هناك ويدعو ام
سلمى الى صفا ابنة عمها تدعوها الى النزهة معهما . ثم ركبت

To: www.al-mostafa.com

الاميرة هند وابنتها وابنة سلفها خيولاً عربية مطهمة تتهادى بما عليها من الحلى ونزلن الى الغدير ونزل معهن مرجان وبيده نارجيلة جوزتها من البلور المطرّس وقلبها من الفضة والذهب وقد علّق على جنبهِ كيس التبباك من الحمل الاحمر المزركش بالقصب ونزلت زهرة ومعها طاس من الفضة وجارية اخرى بطاس آخر وخادم يحمل مجادتين وساروا الهوينا وقد تكبّدت الشمس السماء فلم يصلوا الى الغدير الاّ قبيل الظهر . ثم تبعهم بعض الخدم والحشم ومعهم ما طهاهُ الطهاة من فاخر الطعام وسلتان من العنب والليمون . فمدّوا سماطاً للاميرات ووقفت الجواري في خدمتهن حتى اذا اكتفين من الطعام واكلن الحلوى والفاكية اتكأن يتطارحن الحديث . وكانت ام يوسف من افكه نساء القرية حديثاً واوسعهن رواية فلا يطيب للشهابيات عيش بدونها فيدعونها من بيت الى بيت ولا يخرجن للنزهة الاّ وهي معهن تطرفهن بالاحاديث المختلفة بعضها صحيح وبعضها مختلق او مزوّق فحدثتهن تلك الساعة عن اعمال السحر والتعزيم التي كان يعملها الشيخ نسير تلحوق وكان من اعلم اهل زمانهِ وامهرهم وادهاهم . ومما قصّتهُ عنهُ انهُ كان يضع ابريقاً بين رجلين ويتلو عليهِ بعض الآيات من القرآن والزبور فيدور الابريق من جهة الى اخرى من تلقاء نفسهِ بقوة السحر وانهُ كان يوقف عصاهُ فتقف ثم يأمرها فتدور امام الجلوس من امام واحد الى امام آخر من غير ان يلمسها احد . ويضع ابريقين في زاويتين من زوايا الغرفة واحداً ملآنًا والاخر فارغًا ثم يتلو بعض الآيات فينتقل الابريق الفارغ من مكانهِ ويسير الى مكان الابريق الملآن ويسير الابريق الملآن من مكانهِ الى مكان الابريق الفارغ هذا والناس ينظرون ويعجبون ولا يتكّون انهُ يفعل ذلك بقوة سحرية . ويضع بيضة في اناء ويسلقها فتنتب من الماء العالي من نفسها وتبعد عنهُ . واعجب من ذلك قدرتهُ على شفاء المجانين من جنونهم لكنهُ لا يستطع ذلك ما لم يقفل باب غرفتهِ عليهِ ويبقى فيها عشرة ايام او اكثر صائمًا جاهداً واخيراً يأتيهِ ملك الجن ويقول لهُ اطلب ما تريد فيقول الشيخ ان فلانًا اصيب بالجنون واطلب منك ان تساعدني على شفائهِ فيقول لهُ ملك الجن لبّيك وسعديك قد اجيب طلبك . ولما تورّمت امرأة الشيخ احمد تلحوق حتى ظنّ انها حامل وطال الزمن عليها ولم تلد ولا شفيت من الورم امرّ الشيخ بشير يدهُ عليها فشفيت للحال وزال الورم كلهُ وأُتي اليهِ بالشيخ يوسف تلحوق وهو مجنون جنونًا مطبقًا فابقاهُ عندهُ يومين ثم ارجعهُ الى بيتهِ صحيح الجسم والعقل

وكانت كلما اوردت قصّة من هذه القصص تستشهد على صحتها باسماء كثيرين من الرجال المعروفين في البلاد حتى لم تبقَ شبهة في نفس الاميرة هند وابنة سلفها ان كل ما كان الشيخ

قبيل السحر الحقيقي اما الاميرة سلمى فقالت ان كان الشيخ بشير ماهرًا
لا يستعمل سحرهُ في ما ينفعهُ وينفع ابناء عمهِ وانا لو كنت مكانهُ اقدر
لتهم يملكونني الدنيا
وجهها وقالت اسكتي ولا تتكلمي بهذا الكلام مَن منا ينكر الجنّ الم
ولما رآهم ملأُوا المكان الذي كان فيهِ وضاق بهم ذرعًا وهم يرقصون
صرفهم عنهُ الاَّ بان امرهم ليذهبوا وينقبوا لهُ الارض التي فوق نهر بيروت
في ساعتين من الزمان ولكنهم جعلوا جلالها ممتدةً عرضًا من اعلى الى
ع ولا لشيءٍ ثم عادوا اليهِ يطلبون عملاً يعملونهُ لهُ فحار في امرهِ واخيرًا
فرأى بلاسًا اسود فقال لهم خذوهُ واغسلوهُ لي حتى يصير ابيض فمضوا بهِ
لم يعودوا ولولا هذه الحيلة لخطفوا روحهُ
يسف على كلامها وقصَّت عليهنَّ قصَّة القديسة هندية التي كان ملك الجان
تيس من المعزى فتركب عليهِ وتذهب بهِ الى بلاد الصين وتعود منها
لحواجه جاماتي وتذهب وترجع في ليلة واحدة من غير ان يشعر بها احد.
واجه جاماتي من الحرير الذي جلبتهُ لهُ من بلاد الصين وها دارهُ امامنا
ذلك ما استطاع رجل فلاَّح ان يبني دارًا مثل دور الامراء
سلمى سمعت ابي يقول ان الجاماتي كان يدين الامراء ويستدُّ الحرير
بيعهُ لتجار الافرنج بثمن غالٍ وهذا سبب غناهُ
من اين عرف ابوكِ ذلك والجاماتي نفسهُ يقول ان الحرير يأتيهِ من الصين
صفا الحق مع سلمى وانا سمعت ان ميخائيل طوبيا صار اغنى من قارون
من الامراء والفلاحين بثمن بخس وبيعهِ لتجار الافرنج في مرسيليا
ف انا لم اسمع ان ميخائيل طوبيا استخدم الجن مثل الجاماتي ولكن لا احد
م اللعين خزاهُ الله. ثم قصَّت قصة رجل اراد آخر ان يقتلهُ غيله فاتى احد
كتابة سحرية على قطعة من التنجم ومضى وعلقها في مغارة عميقة فجعلت
يب التنجم رويدًا رويدًا وكلما ذاب منهُ شيءٌ نحل جسم الرجل حتى كاد
طباء عن شفائهِ واخيرًا استشاروا لهُ احد السحرة فعرف لسحرهِ امر
ها حتى وجدوها ونزعوا الكتابة عنها فسلم الرجل من الموت ثم شفي ولولا

فقالت سلمى اذا كان الامر كذلك فلماذا لا يستعين ولاة بالسحر على التخلص من عدائهم بدل المخاطرة بانفسهم ورجالهم . انا لا اصدق شيئاً من ذلك

فقالت ام يوسف هاكِ قصة جرت للمرحوم ابي يوسف بالقرب من المكان الذي نحن فيهِ الآن . كان ذات ليلة راجعاً من بيروت وكان القمر بدراً فلما وصل الى الوروار سمع غناء وزغردة فظن ان على الطريق اناساً آتين بعروس ثم لما قرب من المحمه علا الصوت كثيراً واتاهُ ربعة اولاد وهم يصفقون ويغنون ويقولون يا ابا يوسف يا ابا يوسف تعال انظر العروس سار معهم رغماً عنهُ حتى اذا وصل الى قرب الماء رأى عروساً مجوهّة وحولها جمهور غفير من الرجال والنساء وهم بالحلى والحال فقبضوا عليهِ وقالوا لهُ هيِّ نكتب الكتاب فصلّب يدهُ على وجههِ فانشقّت الارض وابتلعت العروس وكل الذين كانوا معها . وقالت ام يوسف ذلك رتجفت مفاصل الاميرة هند والاميرة صفا واما سلمى فقالت ان معلمي قصَّ عليَّ قصة من هذا القبيل وهي انهُ كان سائرًا مرةً في طريق لم يسر فيهِ من قبل فوصل الى بئر سمع صوتاً خارجاً منها فاطلَّ واذا في قعر البئر نسوة يستقين ماء فلم يشك انهنَّ من الجن فاسرع العدو ولما اتمَّ غرضهُ من المكان الذي كان ذاهباً اليهِ خاف ان يعود في الطريق الذي ذهب فيهِ فعاد في طريق آخر يمرُّ من تحت البئر وكان هناك درج يوصل الى اسفل البئر والنساء ينزلن بهِ ويستقين من الماء فلو لم يمرَّ في ذلك الطريق لاعتقد انهُ رأى نساء الجن في البئر

فقالت لها امها لا يمكننا الاَّ التصديق بوجود الجن والبئر يصدق بوجودهم والمطرن ايضاً وكل احد يصدق بوجودهم وهم الذين رجموا بيت خالكِ بالحجارة فقد فتشنا عن الراجمين كل مكان ولم نرَ احداً . وقالت الاميرة صفا دعونا من هذا الحديث فقد صرت اخاف من خيالي ولا يمكنني ان انام وحدي الليلة

وقصَّت ام يوسف عليهنَّ قصصاً اخرى مضحكة فاطربتهنَّ بعد ان خوَّفتهنَّ بقصص السحر والجن فمضى النهار ومالت الشمس الى المغيب وهن لا يشعرن . ولما مرَّ الامير احمد والتفت اليهنَّ ثم غضَّ طرفهُ نظرت ام يوسف الى الاميرة صفا ثم نظرت كتاتها الى الاميرة سلمى فرأتاها قد احمرَّت واطرقت الى الارض فتغامزتا ولم تقولا شيئاً . وكان العبيد قد اتوهنَّ بالخيل فركبنَ وعدنَ الى بيوتهنَّ

ودخلت الاميرة هند غرفة ابنتها في المساء وقالت لها اين كان احمد يا ترى الظاهر انهُ لم ينظرنا ألم تغيري فكركِ من جهتهِ تقول خالتكِ ان عمهُ واولاد عمهِ يحسبونهُ رئيس العائلة وركنها

كنهُ درزي وفوق ذلك فانا لا اميل اليهِ مهما كان
لا يرضى بجيد لانهُ شاب خليع
ال اني اريدهُ . انا لا اريد احدًا ولا اريد ان افارقكِ وادارق ابي

الفصل الرابع

ما وراء الستار

دور الاستانة العلية التي تطلُّ على البسفور اجتمع جماعة من وكلاء
توها خفية الواحد بعد الآخر واوصدوا الابواب وجلسوا ينظرون في
ت اليهِ من الضعف وجعل كلٌّ منهم يقصُّ القصص المخافة عن
بها اصدقاءُ يكاتبونهُ منها او التي كان مأمورًا فيها . وبعد ان نظروا
وارد الخزينة وفي ما آلت اليهِ حال الجيش بعد عودتهِ من حرب
الحدود اخذوا ينظرون في الدواء فاشار واحد منهم ان يعيدوا قراءة
ظة بان لا يبوح احد منهم بكلمه مما قيل ويقال في ذلك الاجتماع
لى الكتمان واتباع الخطة التي يقع الاجماع عليها . ولا يُعلم حتى الآن
ها والآراء التي ارتأوها ولكن يعلم انهم اجمعوا اخيرًا على ان يعملوا
وربيَّة ويجعلها تساعدهم على تغيير الحالة . وكان بعض المأمورين في
وا اليهم من اطلعهم على القرار الذي اجمعوا عليهِ . واهالي سوريَّة
نهم لا ينبذون ضغائنهم واحقادهم التي اضعفتهم واذلتهم فتعبث بهم
نرين الى كل من يدعي زعامتهم وكيف لا يكون الحال كذلك وقد
لم قرونًا طوالاً ولسان حالهم يقول

لضغائن آباءٍ لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء ابناء

لاجتماع على ايقاد نار الثورة وان يكون القصد منها التنكيل بالنصارى
ض سياسي . وهذا شأن رجال السياسة في كل زمان يبيعون النفوس
قصدونها ولولا ذلك ما كان لنصف الحروب والثورات سبب معقول .
سالف عهدهم وانما يختلفون في الاساليب التي يبتدعونها وقلَّ من
شكوى منهم او يقول كما قال ذاك الاعرابي لعمر بن عبد العزيز

ان الدين عنت في قصر ببده كتب واستحى العرم
طلس الشيب على مفرقه كل شعور وكهام يتعم
واردت ان يلي الامامة منهم عبد هجوت الاميين اسماً

او من يقول ما قاله السعود قبل ولي الخلافة

حتى متى لا ارى عدلاً سرى فيه ولا يرى لولاة الحق عسال
مستمسكين بحق قائمين به اذا تقوّض هذ الطور الوانا
يا للرجال لداء لا دواء له وقد ذي عمى يقتاد عميانا

ولا تحسبنّ اعمران الغربي مريلاً لهذه التكوى وشافيًا من هذا الداء كلاّ بل ان مع اهل الغرب تفوق مطامع اهل الشرق ودهشهم من رجال العمل ورجال السياسة يعون الى نيل مآربهم بكل وسيلة ويستخدمون كل عمل فيدخل رؤادهم بلادًا بعيدة تلون صاحبها حتى يعاهدهم معاهدة لا بدّ له من الاخلال بها ثم يتعدونه الى ان يولوا على بلاده او على خيراتها بحجة مخالفته لذلك العهد. ولا بدّ من ذلك ما دام هذا زع للبقاء سنّة للكون

في غرفة من غرف الدار الكبيرة التي يسكنها الامير احمد ارسلان وقد سكم اوه من قبله جماعة من الامراء والمشايخ والعقّال اجتمعوا على اثر عودة الامير احمد من عند لونل روز وتداولوا في احوال الجبل فقصّ عليهم الامير ما قاله له الكولونل وما قاله الوالي بل كلٌّ يبدي رأيهُ ويعيد تاريخ الجبل ويذكر اسباب الاحداث القديمة من عهد آل خ وآل معن وتعرّض الدول الاوربية لابرهيم باشا وكيف استتبت السلطة لباب العالي البلاد بمساعدة دولة انكلترا ولولاها ما استطاعت الدولة العلية ان تخرج ابرهيم باشا من د الشام بل كان نصف رجال الدروز الآن منتظمين في سلك الجنود المصرية. وبعد كلام يل في هذا الشأن تناول الحديث شيخ اشيب من التلاحقة وقصّ عليهم ما فعله السنيور قنصل الانكليز في دمشق الشام منذ ثماني عشرة سنة لما هرب الامير امين ارسلان والامير مد شهاب ونحو الفين من الدروز الى حوران فرارًا من عمر باشا الذي اعتقل امراء الدروز شايخها وكاد يوقع بكل عظيم منهم فان والي الشام اوجس منهم شرًّا لا سيما وانهُ يعلم فعل الدروز بعساكر ابرهيم باشا في تلك البلاد الوعرة بجمع اعوانهُ واستنارهم في الامر شاروا عليه ان يلجأ الى السنيور وذلك يقنع الدروز بالعودة الى الطاعة والرجوع الى

طانهم . والظاهر ان السنيور ود سرّ بذلك لانهُ كان يود ان يتوسط امر الدروز من نفسهِ بحتى ان لا تقبل وساطتهُ على حد قولهم كل معروض مرفوض فقبل الوساطة على شرطين لاول ان يُطلب العفو لاولئك الرجال من الباب العالي . والثاني ان يؤمّنوا على ارواحهم ن ان يأتيهم العفو . فقال لهُ الوالي احمد باشا اني اسمح لهؤلاء العصاة ان يقيموا في دار نفصلية الى ان يصل فرمان العفو من الباب العالي وأطلق كل اقاربهم الذين قبض عليهم دعهم يقيمون معهم في دار القنصلية

فبعث السنيور ود ترجمانهُ الى حوران ومعهُ امر الوالي بالمهادنة الى حين وصول العفو ، الاستانة وكتب معهُ الى الامراء والمشايخ ضامناً لهم سلامتهم بناء على ضمانة الوالي لهُ صحاً لهم لكي يسلموا وينزلوا الى دمشق . وبعد ايام قليلة عاد الترجمان ومعهُ الامير اسعد هاب (وكان قد انضمّ الى الدروز لانهم وعدوهُ بالولاية على الجبل) والشيخ يوسف عبد لك وغيرهما من مشايخ الدروز وسبعمائة من اتباعهم . ومضى السنيور ود الى الوالي بمشايخ روز فرحّب الوالي بهم واعطى كلاً منهم شالاً من الكشمير علامة العفو والرضا . ثم وصل ة الدروز فضاقت بهم دار القنصلية ورأى السنيور ود انهُ يستحيل عليهِ ان ينزلهم كلهم في رهِ الى ان يرد العفو من الاستانة فسمح لهم الوالي بالعودة الى بلادهم ما عدا سبعين من ساءهم بقوا في دمشق منتظرين فرمان العفو . وبعد تحرير جاء الفرمان المنتظر وفيهِ امر ريح بالقبض على اولئك المشايخ وقتلهم وارسال رؤوسهم الى الاستانه وكان احمد باشا قد ل من ولاية دمشق وولي علي باشا بدلاً منهُ فجاء كاحيتهُ الى دار القنصلية قبلما اشتهر ما في رمان وقال لمشايخ الدروز على مَ انقطعتم عن التردد على دولة الوالي فتمهلوا واشربوا فنجان قهوة عدما التفت التسيح يوسف عبد الملك بهذا الكلام وسار معهُ الى دار الولاية فقبض عليهِ حالما لها وبلغ السنيور ود ذلك فخرج الى دار الولاية وابى ان يجلس الا ويطلق سبيل الشيخ عارهُ الوالي فمضوا الفرمان ثم قرأه لهُ والتفت الى احمد باشا وكان جالساً معهُ على الشاوقال كيف كان الاتفاق بيني وبينك ألم يكن على كذا وكذا وقصّ على علي باشا واقعة الحال قال لاحمد باشا انك لو ذكرت للباب العالي واقعة الحال كما وقعت لما جاء الفرمان بالعفو أ . فاجاب احمد باشا اني ذكرت لهم كل ما حدث بالتدقيق فكانت النتيجة كما ترى . ل علي باشا لا بدّ لنا من العمل بالامر العالي

فقال السنيور ود ان استطعتم ان تفعلوا ذلك فافعلوا ولكن اعلموا ان الكابتن لا تحمر ذمة ل من قتلهم

ثم احدم الجدال بينه و بينهم ساعات مضت على غير طائل واخيرًا قال لهُ انك ان لم تطعنا كل الرجال الذين عندك رضيت ضطرره ان يرسل قوة عسكرية واستلامهم عنوةً

فاطرق برهة يفكر في امره ثم قال نعم ان بيننا صداقة منذ عهد طويل ولي عليك يل لا تنكرهُ واذا كان لا بدَّ لك من العمل حسب امر الدولة فرجو من فضلك ان تدرني قبل ارسال القوة العسكرية بنصف ساعة حتى اخرج انسا والاعتدال من دار القنصليَّة

فقال لهُ علي باشا وهل مرادك ان تقاومنا بقوة

فقال القنصل حتما ولا بدَّ لي من الدفاع عن شرف القنصلية ولا يمكن ان تمسوا احدًا ن كل الذين في حمانا ما دمت في قيد الحياة وانت تعلم ما يفعل انا مسلحون متلما اذا عنا في اليأس ولا يخفى عليك ان الدولة الانكليزية لا تدع نقطةً من دمنا تذهب هدرًا ذا شئت ان تلقي دولتك في المتاهل وتعمل ما تشاء

ثم نهض وهمَّ بالخروج فطلب اليهِ علي باشا ان تقابل واحد يفكر في امره ثم قال لهُ اني رف الانكليز واعرف مقدرتهم ولا اريد ان اكون سبب خلاف بينهم و بين دولتنا العلية خذُ العهدة على نفسي واوقف الامر العالي وغاية ما يصيبني العزل او الابعاد وهما اهون ن حرب دولية

ثم امر بان يطلق سبيل الشيخ يوسف عبد الملك فعاد الى دار القنصلية بعد بين سنة من قواسة . واجتمع اهالي دمشق يرون مقدرة قنصل الانكليز ويتعجبون بها

قال المتكلم وبقينا في دار القنصليَّة سبعة اشهر لاني كنت في جملة من لجأ اليها الى ان جاء العفو من الاستانة وقد بلغنا ان العفو صدر منها بواسطة سفير الانكليز فاذا كان قناصل الانكليز وسفراؤهم يحمونا ويدافعون عنا اينما كنا فكيف لا نسمع مشورتهم ولا نعمل حسب ارادتهم

وكان المتكلم شيخًا جليلاً مسموع الكلمة وكانت هذه الحادثة معروفة عند بعض الحضور شهدوا بصحتها وكاد ينفضُّ الاجتماع على ان لا يحركوا ساكنًا ولا يأتوا عملاً من شأنهِ اثارة حرب اهلية في البلاد ولكن قال واحد منهم قبل انفضاض المجلس هب ان خصومنا اعتدوا علينا وتكرَّر اعتداؤهم فهل نصبر على الضيم فأجاب اكثر الحضور كلاَّ كلاَّ . ثم اتفقوا على ان يرسلوا خبر ما قرَّ عليهِ قرارهم الى الخلوات كلها في الجبل ووادي التيم وحوران

سيأتي البقية

الفصل الخامس

سورية في البارلمنت الانكليزي

غطى الضباب مدينة لندن ووقفت المركبات عن السير والناس عن المشي ولم تعد المصابيح تُرى في الشوارع فلم يصل الأعضاء الى دار البارلمنت الا بشق الانفس . ولما انتظم عقدهم وجلس كلٌّ في مكانه حسب درجته دارت المجادلات على نتائج الحرب بين النمسا وسردينيا ومعاهدة زورك وتنازل امبراطور النمسا عن لمبردیا للامبراطور نبوليون الثالث الذي اعطاها لسردينيا وعلى ماجريات الحرب الاميركية الاهلية والقبض على جون بروون الذي عم الترسانة الاميركية بعد ان قُتل نصف رجاله وعلى ما جرى لسفراء انكلترا وفرنسا واميركا في بلاد الصين وهم ذاهبون الى بكين فصدُّوا عن دخولها . وطال البحث في هذه المسائل الى ما بعد نصف الليل

وكان العضو النائب عن لنكشير قد طلب من مجلس النواب ان ينظر في ما شاع من قرب نشوب الحرب في سورية وعما يقال عن دسائس بعض الدول الاوربية رغبة في احتلال تلك البلاد واقفال ابوابها دون التجارة الانكليزية . فلما سنحت الفرصة للمناقشة في هذا الموضوع نهض وقال ان لنا في سورية تجارة واسعة فنرسل الى مدينة بيروت في السنة ما قيمته اكثر من ستماية الف جنيه فاذا نشبت حرب اهلية هناك بارت تجارتنا واذا استولت عليها دولة اوربية فقولوا على تجارتنا السلام . وانا اسأل الرئيس عمّا عنده من الاخبار في هذا الصدد وعن التحوطات التي اتخذتها الحكومة لمنع هذا الضرر عن التجارة الانكليزية

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذا الامر تمام الاهتمام وانه عقد جلسة لبحث ذلك على علمه ان المسئولين لا تخفى مطارح المجلس عليه

فقال العضو انا لا اكتفي بهذا القول بل اريد ان تعلم تلك البلاد ان انكلترا تحميها لما باخبارها التي ابهج وشفى قلبها كما تعلمها الوزارة وانها يهمها امر تجارة انكلترا وانها تبذل اللازمة لمنع الحرب الاهلية وان تذاكر الحكومة الطامعة باحتلال سورية وتقف يدها عن ذلك

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذه المسائل كلها وهي ترجو ان تطرح على المجلس نتيجة اعمالها بعد وقت غير بعيد ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان الوزارة تهتم لكل امر له علاقة بنا ولكنها لا تكفل النجاح في كل امر لان زمام الدنيا ليس في يدنا

ونهض المستر غلادستون حينئذٍ وكان ناظرًا للمالية وقال ان مالية البلاد لا تمكن الوزارة

من عمل كل ما تتمناه ولكن الوزارة لا تحس بما في قلبي اذا كان سائقه وحفظ متاجرها . ثم قال ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان حيوشه الصين مع جيوش الدولة التي اشار اليها ولم تكن مجموعة وحدة فلا في عمل يكون من ورائه الاضرار به

ففهم الاعضاء من كلامه تهديدًا خفيًّا ولكنه لطيف لا يؤاخذ

وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة برئاسة لورد رسل وزير الخارج سفير انكلترا في الاستانة عن ثورة الافكار التي يراد بها خلع السلطان كانت ولو بالتنكيل بالمسيحيين حتى تنهض دول اوربا وتستعمرهم . وما بيروت عن سعي فرنسا المتواصل في تحريض موارنة الجبل على نظرت في تقرير غرفة التجارة عمَّا تستورده سورية من منسوجات انكلترا الصوف وعرق السوس . وبعد بحث طويل في هذا الموضوع قرَّر رأي سفيرها في الاستانة والى سفيرها في باريس وخلاصته السعي في منع واسطة ممكنة وحمل الدروز على الاخلاد الى السكينة وعدم الاعتراض يعدونهم بالمساعدة

وفي تلك الليلة اجتمع جماعة من الماليين عند واحد منهم ودار الذي عقدته فرنسا والقرض الثاني الذي طلبهُ فكتور عمانوئيل ملك ضم ممالك ايطاليا بعضها الى بعض

فقال احد الحضور واسمهُ ابن حاييم ان القرض الاول ممكن فكتب على النمسا فاذا تيسَّر لهُ بهذا القرض الثاني ان يضمَّ ممالك ايطاليا به ملكًا عليها كلها نكون قد خدمنا اسرة ساقوى خدمةً لا متيل لها جز

وقال آخر ليس من غرضنا ان نخدمهُ او لا نخدمهُ بل ان نستمرا عليها فيها . اما فرنسا فماليتها ثابتة وشعبها مجتهد مقتصد ولا خوف عا ايطاليا فبلاد فقيرة واكثر خيراتها تذهب الى خدمة الدين فيها . و تطول عشرين سنة اخرى لوثقنا انهُ يصلح البلاد ويبني مالية الحكوم واحوال ايطاليا لا تزال مرتبكة والسلطة الدينية قوية فيها فلا يحسن الج

وبعد اخذ وعطاء في هذا الموضوع اتفقوا على ان لا يكتبوا باكـ

ثم قال ابن حاييم كتب الينا الخواجه بخور من دمشق ان الا

ن علي ما يرام وان دروز الجبل يستعدون للحرب الاهلية وقد استدان روَّساؤهم منهُ نحو بن الف جنيه بربا عشرين في المئة وطلبوا مئة الف جنيه اخرى وهو لا يرى مانعاً يمنع ءهم اياها لانهم وعدوهُ برهن ضياعهم في البقاع وهي تساوي اضعاف ذلك . والدروز ون في ذمة انكلترا فلا يجسرون ان يهضموا لنا حقًّا عندهم

وقال آخر انني التقيت منذ ساعة باللورد فلان فاخبرني ان الوزارة بادلة جهدها في منع ب الاهلية من سورية وقد ارسلت الاوامر المشدَّدة الى سفيرها في باريس وسفيرها في تانة ليبذلا جهدهما في ما يمنع اثارة الحرب

فقال ابن حاييم ان تمَّ ذلك فهو اصلح لنا وان لم يتم ونشبت الحرب فلا بدَّ من ان تلجأ ة العثمانية الى التعويض علي المنكوبين وخزائنها فارغة فينفتح امامنا سبيل آخر للكسب

الفصل السادس

التفتيش الاول

لما حان الوقت الموعود لذهاب السر هنري بدمونت الى التويفات لزيارة الامير احمد تيش عن المغارة التي فيها رفات جدهِ كونت بدمونت خاطب الكولونل روز في ذلك ب منهُ ان يسمح لهُ بذهاب الترجمان معهُ لئلاَّ يجد الامير احمد غائبًا فينعذَّر عليهِ التكلم حد لانهُ لا يعرف كلمة من العربيَّة . وقام في الصباح وركب جواده وركب معهُ الترجمان وقوَّاس من قواسة القنصلاتو وساروا نحو التويفات فوصلوها بعد ساعتين من الزمان ا الامير احمد في انتظارهم عند نهر العدير ومعهُ جماعة من الامراء ابناء عمهِ والخدم ثم فرحَّبوا بالسر هنري وساروا امامهُ وكان الامراء بالخيول المطهَّمة وقد عطوا سروجها ح الذهب الوهاج فوق لبد الشعر الاسود وقلدوا اعناقها برصائف من الذهب لوسواسها عجي تسمعهُ الاصائل وتطرب بهِ فيزيد اعجابها وتهاديها فتظنها ترقص رقصًا وهي تسير . حتى اذا بلغوا دار الامير احمد استأذنوا السر هنري في نصب الميدان اكرامًا لهُ موا قسمين وجعلوا يكرون ويفرون ويتراشقون بالجريد فطرب لذلك طربًا شديدًا . ت الشمس قد تكبدت السماء واشندَّ الهجير فشكرهم على ما ابدوهُ لهُ وقال انهُ طالما تمنى ري ميدانًا مثل هذا يلعب فيهِ امراء البلاد على صهوات الصافنات الجياد . ثم ترجَّل لوا ودخلوا ديوانًا جلسوا فيهِ واستراحوا هنيهة وقدمت لهم الشربات والشبقات ومدَّ السماط . فاخر الطعام وأُتي بعدهُ بالحلويَّات وكانوا ثمانيةَ الامير احمد وخمسة من ابناء اعمامهِ

والسر هنري و [illegible] وكل [illegible] هنري في كل الا
الامير احمد [illegible]

واستراحوا بعد [illegible]
لي من العودة الى بيروت اليوم وارجو [illegible]
ما حول بلدكم من المعاقل الامير احمد [illegible]
او ماشيين . فقال السر هنري بل نقيل [illegible]
او كان المكان بعيداً جداً

فضحك الامير احمد وقال اني اجري [illegible]
لاسيما واننا مضطرون ان نعاود السير في [illegible]
وحدها قاصدين المغاير التي كان الامير احمد يتربص
القرية ودارا الى جنوبيها وشرقيها وهبطا في جهة كثر
الامير وكانا كلما وصلا الى باب مغارة يراجع السر هنر
وصف المغارة والحيلة التي تطل عليها ويدخل احدهما معه
هذه الحال نحو ثلاث ساعات الى ان اجتمعا بالسر هنري
هنري مكاناً ينطبق على الوصف الذي عندهما

وبينما كان السر هنري والامير [illegible] يجولان [illegible]
دفن فيها الكونت بدمونت كانت الاميرة [illegible]
سلفها الى نبع ماء في مكان بين كفرشيما والشويفات
واتى معها رجل قزم كثير المزل والمزاح [illegible]
خاطراً يقيم في دور الامراء للهزل والتهريج فلما وصل
تخطفها الجن اذا اتت وحدها فاتت بي معها مع اني اكر
ابو يوسف اعمى القلب ما وقع هذه الوقعة ولكن لا بد
فانتهرته ام يوسف وقالت اسكت ياخبيث وخلنا
الست سلمى لا تصدق بالجن ولا بالعفاريت

فقالت الاميرة صفا دعونا من سير الجن والعفار
طول الليل

فقال القزم الحق في يد الست صفا وانا اخاف

ت هند اتاكم ضيوف من اولاد عمكم ملأوا الدار
فقالت قبحك الله على هذه البشارة نحن نهرب من الناس والناس تلحقنا
فقال اذا اردتِ ان تتخلصي منهم فلا اسهل من ذلك دينّي الفقير منهم فلا تعودي
، وجههُ واطلبي من الغني ان يدينكِ فلا يعود يرى وجهكِ
فقالت اصبت وان كان فراق البدوي بعبا فلا كان البدوي ولا كانت العبا
وقبل ان تتم كلامها وصل الامير احمد والسر هنري والرجال الثلاثة الذين معهم .
طربت الاميرات لما رأين رجلاً بثياب افرنجية ولكن لم يطل اضطرابهنّ لان الامير
كان قد اخبرهنّ انهُ لقي في بيروت عند القنصل شابًّا انكليزيًّا من عائلة شريفة وانهُ
ءُ بزيارة التويفات بعد ايام قليلة فلما رأينهُ ادركنَ حالاً انهُ هو الشاب الذي اخبرهنّ
. وتقدم الامير احمد وعرّفهنّ بهِ
فنظرت اليهِ الاميرات معجبات من جمال طلعتهِ واعتدال قامتهِ ونظر هو اليهنّ فرأى
ـــ الشرقي الذي قرأ عنهُ في حكاية الف ليلة وليلة وكتُب الروايات والرحلات وكان
، انهُ من قبيل الشعر والمبالغات
ودعتها الاميرة هند للجلوس معهنّ وشرب القهوة وقدّمت لها السكاير وسألت السر
ي عن كيف رأى البلاد وعمّا اذا كان معهُ احد من اهلهِ وطلبت اليهِ ان يزورهم
يفهم تلك الليلة . وكان الامير احمد يترجم بينها وبينهُ فاجابها السر هنري انهُ آسف
تثقّل عليهنّ بمجيئهِ اليهنّ في تلك الساعة ولكنهُ سُرّ جدًّا برؤية الاميرات الشهابيات
كان يحسب انهنّ يتحجبنَ مثل سائر نساء الجبل فاذا هنّ مثل الاميرات في بلادهِ
نمن مخلوقات الله من نظرهنّ كما لا تحرم الشمس النبات من باهر اشعتها
سرّت الاميرة هند بهذا التشبيه ونظرت صفا وسلمى اليهِ باسمتين ثم اطرقتا حياء اما
م فكان يتأخر الى الوراء رويدًا رويدًا وهو يزور بعينيهِ ويقلب شفتيهِ . والتفت اليهِ
ير احمد وقال لهُ مالي اراك تهرب منا يا عنتر
فقال متى حضرت الملائكة هربت الشياطين . فقال الامير اذًا كان يجب ان تهرب
مجيئنا
فقال عنتر كنت عازمًا على الهرب ولكن ام يوسف مسكتني لانهُ لا يطيب لها عيش
لبعد عني
فقالت ام يوسف اسكت يا لعين وخلّنا من شرك فانت في كل عرس لك قرص

والتفت السر هنري الى الامير احمد كأنهُ يستفهم منهُ عمَّا يقولهُ الفزم فترجمهُ لهُ فضحك وهو يقول في نفسهِ هذا مجلس من مجالس الامراء حقيقة وهذا من الاقزام الذين لا يخلو منهم مجلس اس من مجالس الملوك

وكان الخدم قد غلوا القهوة واردوا تقديمها للسر هنري قبل غيرهِ فأبى الاَّ ان تقدَّم الى الاميرات اولاً . فقالت لهُ الاميرة هند اذًا العادة عندكم مثل العادة عندنا تقديم الاميرات على الامراء . وترجم لهُ الامير احمد ذلك وقال لهُ ان هذه هي العادة عندنا ايضاً ولكنها خاصَّة بالاميرات واما سائر الناس فرجالهم مقدمون على النساء في كل شيء . فعجب السر هنري من ذلك وقال اذًا لم يفضَّل اميرات الشرق الاَّ لان حقهن في التفضيل اثبت من ان ينكر

وكان مجلسهُ مواجهاً لمجلس الاميرة سلمى فلم يسعهُ الاَّ النظر اليها مرةً بعد اخرى فصبغ الحياء وجنتيها وزادها جمالاً على جمال . ولحظ حرج موقفها وشعر من نفسهِ انهُ في موقف تذوب فيهِ المهج فنهض واستأذن في الانصراف فنهض السيدات اجلالاً لهُ فودعهنَّ مصافحةً وعاد ادراجهُ هو والامير احمد وهو مبلبل الافكار وخاف ان يظهر امرهُ فجعل يحاول جمع افكارهِ المشتتة وهو ينظر الى ما حولهُ فيرى صوراً تمر امام عينيهِ ولا يفقه لها معنىً الى ان وقعت عينهُ على نبات صغير الورق لهُ ثمر احمر كحبوب المرجان فوقف وقال للامير احمد انظر هذا نبات الفوَّة الذي يستعمل في الصباغة وهذه اول مرة رأيتهُ نابتاً

وكان عارفاً بعلم النبات مغرماً بجمع الحشائش فاخذ يصف بعض ما يراهُ منها لكي يخفي ما بهِ من تبلبل الافكار

وألحَّ عليهِ الامير احمد لكي يبيت عندهُ تلك الليلة وارسلت امهُ تلحُّ ايضاً فاعتذر بانهُ لا بدَّ من عودتهِ حالاً لكي يكتب مكاتيبهُ لقيام سفينة البريد في الصباح لكنهُ وعد بالعودة في الاسبوع التالي لاستئناف البحث عن المغارة

الفصل السابع

مطارح النظر

التنازع سنَّة الكون بهِ ارتقت انواع الحيوان والنبات واليهِ مرجع التفاضل بين الشعوب والامم . وهو شامل لاعمق عواطف النفس كما انهُ عامٌّ لما في الكون من العوالم

كان السر هنري بدمونت مغرماً بابنة خالهِ اقلين برادن يراها عين الكمال ومجمع الجمال وهي تدلُّ عليهِ ولا ترى في قلبها ما يجذبها اليهِ لانها رأت منهُ سيراً على غير الطريق السوي مثل

اكثر الشبان الذين يربون في نعمة وينغمسون في الملاهي . فان امهُ ارسلتهُ الى مدرسة اكسفرد وقطعت لهُ مئة جنيه في الشهر فكان ينفقها وينفق فوقها وهذا شأن اكثر الشبان في تلك المدرسة . وكان قليل الدرس ولكنهُ ذكي الفؤاد فحصَّل ما يكفي لنيل الشهادة وخرج من المدرسة ولا مطمع لهُ في الدنيا الاَّ ابنة خالهِ فلا يرى غيرها ولما رأى منها الدل والصدود رهن نفسهُ لمشيئتها وانقطع عن الملاهي وعكف على الدرس وطلب المعالي ولا غاية لهُ الاَّ رضاها حتى حسدها عليهِ اترابها . اما هي فبقي الدلال شأنها والغنج ديدنها . وحدث ذات يوم ان ذكرت القاب الشرف وانساب الشرفاء فقال ان جدَّهُ كان مع الملك ركارد ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد وانهُ كان فارساً مغواراً وانعم عليهِ الملك بلقب كونت قبل وفاتهِ

فتبسمت اقلين قائلة اراك تصدّق هذه الاقاصيص الموضوعة كأنها حقائق راهنة

فقال لها هذا ليس من الاقاصيص الموضوعة بل هو خبر ثابت بالسند المتصل واما اصدّق ولف كما اصدّق اصدق الناس . والفارس الباسل لا يكذب ولا يحاق الاخبار . وقد ذكر ولف في الخبر الذي نُقل عنهُ انهُ وضع وثيقة نقب جدي على صدرهِ لما دفنهُ وهذا كلام من رأى بعينهِ ولمس بيدهِ . نعم ان منحهُ هذا اللقب غير مذكور في سجل الالقاب ولكن اي سجل يحفظ بالتدقيق والناس في دار الحرب . ولم تصفُ الايام لقلب الاسد بعد رجوعهِ وخلاصهِ من الاسر حتى تطالبهُ عائلتنا باثبات ذلك في سجلات الحكومة

فبقيت اقلين على ريبها وقالت لهُ ان انت وجدت الوثيقة اثبتَّ الكونتية لك لانك الوارث الوحيد لهُ الآن

فقال نعم وسأعمل ذلك وابذل دونهُ كل مرتخص وغالٍ ان كان يرضيكِ

وكانت تتكلم معهُ على سبيل المزاح اما هو فاخذ الامر بالجد وجعل يفتش في كتب الانساب والتواريخ وعقد النيَّة على الذهاب الى سورية ليفتش عن الوثيقة فيها . وكان قد انتظم في وزارة الخارجيَّة مطلب ان يُنقَل الى بلاد الشام فنقل اولاً الى الاستانة ثم الى مدينة بيروت وآمالهُ معلقة باكتشاف الوثيقة وارضاء ابنة خالهِ وهو لا يرى غيرها امام عينيهِ . اما الآن فعاد من السويفات على غير ما ذهب فقد ذهب اليها وفي قلبه شخص واحد وامام عينهِ مطلب لا يرى سواهُ وهو ان يعود بالوثيقة فترضى ابنة خالهِ عنهُ وترتفع منزلتهُ في عينيها وعاد وقلبهُ يتنازعهُ شخص آخر شخص الجمال والدلال فتاة لم يرَ اجمل منها في بلادهِ ولا في غيرها فتاة من نسل الامراء الذين حاربوا فرسان الصليب ودحروهم في بلاد الشام . ولقد ربي مع ابنة خالهِ وشبَّ معها واحبَّها كما يحبُّ الاخ اختهُ ولكنهُ كان يشعر دائماً انها بعيدة عنهُ

وازداد البعد بتقدمهما في السن فظن انهُ لم يملأ عينيها لسيرهِ في طرق لا ترضيها فغيَّر اسلوب معيشتهِ وبذل جهدهُ في مرضاتها . وكلما ظن انهُ بلغ المراد رأى انهُ لم يزل حيث كان بالنسبة اليها لا هي تقصيهِ ولا هي تدنيهِ لكنهُ لم يفشل ولا قطع الامل وقد تحمَّل مشقة السفر الى بلاد الشام قربةً منها وزلفى

والآن شعر كأن آمالهُ كلها كانت اماني واقلين لا تحبهُ الا كما تحب الاخت اخاها تهتمُّ بامرهِ وترجو لهُ الخير والفلاح تحزن لحزنهِ وتفرح لفرحهِ . تتألم اذا اصابهُ مكروه وتفتخر اذا فعل فعال الكرام وتفتديهِ بنفسها اذا وقع في شدة ولكنها لا تلقي اعتمادها عليهِ ولا تحسب انهُ الرجل الذي يكفلها في السراء والضراء

ثم قال في نفسهِ ولكن من هذه الاميرة ومن هم قومها وما هي اخلاقهم واطوارهم ومن اي مذهب هم وكيف ينظرون اليَّ وقد لا اراها بعد الآن وقد تكون مخطوبة او متزوجة وقد يكون اهلها ارفع مني حسباً ونسباً فلا يتنازلون لمصاهرة الناس مثلنا . كنت استطيع ان اسأل الترجمان عنها ولكنهُ يعد ذلك فضولاً مني . ولا يبعد ان تكون خطيبةً للامير احمد وهي ابنة خالتهِ ولعلها احمرَّت لما رأتهُ . لم تتكلم على مسمعي غير كلمة واحدة حينما عرَّفها بي فقد قالت بالفرنسوية انها تسر بمعرفتي . ما امهر هؤلاء الفرنسويين في تعليم لغتهم ونشرها في الآفاق . هذا كلهُ فعل الرهبنات . يطردونهم من بلادهم وينفقون عليهم في سائر البلدان لينشروا فيها لغتهم . لا بدَّ من ايضاح ذلك لنظارة الخارجيَّة حتى تهتم حكومتنا بنشر لغتنا اهتمام الفرنسويين بنشر لغتهم

ساكتب لامي عن هذه الفتاة وهي تقرأ كتابي لاقلين فتثور الغيرة في قلبها ذلك القلب الطاهر . قوتل الرجال ما اقل وفاءهم . لا لا لا انسالك يا اقلين ابداً . ان افتكاري بهذه الاميرة السورية من قبيل الجنون الوقتي الذي يعتري الشاب . دقائق جديدة تكونت في دماغي كما يقول العلماء ارتسمت فيها اول صورة وقعت عليها لكنها تزول سريعاً كما ارتسمت سريعاً

خطرت هذه الخواطر على بال السر هنري وناجى نفسهُ بها وهو ماسك القلم وعازم على الكتابة لامهِ ونظر الى ساعة امامهُ وقال حسبي من احلام الصبا وانفض رأسهُ مسرعاً كأنهُ يجزر ذباباً حطَّ عليهِ وغرضهُ نزع هذه الافكار من بالهِ وشرع في الكتابة فملأ صفحات كثيرة وصف فيها كل ما لقيهُ في ذهابهِ الى الشويفات ورجوعهِ منها

الفصل الثامن

الاجتماع الثاني

عاد وكلاء الدولة والعلماء الى الاجتماع في دار رشيد افندي وكلهم متشوف الى الاطلاع على ما فعلتهُ اللجنة التنفيذية التي شُكّلت لاجراء ما اقروا عليهِ في اجتماعهم السابق وعلى ما ورد عليها من اشياعهم في سورية فقرئ كتاب وارد من دمشق مؤداهُ ان سكانها على اتم الوفاق والوئام وانهُ يتغذر ايقاظ الفتنة فيها لا سيما وان اميرًا من نزلائها لا يستحل خفر ذمة احد بوجه من الوجوه ولا يصدق ان ما طُلب منهُ يعود بالنفع على احد . واعوانهُ اشداء يفعلون كل ما يأمرهم فيستطيع ان يحمي بهم المدينة كلها

ولما قُرئ هذا الكتاب ضحك احد المأمورين وقال ان كانت كل الكتب التي وردتنا على هذا النسق فلا فائدة من قراءتها غير التضليل فان الامير هو الذي اشار على فرنسا باحتلال سورية وارشدها الى السبيل المؤدي الى ذلك فوعدتهُ بجعلهِ اميرًا عليها

فناقضهُ مأمور آخر وكثر الحجاج واللجاج بين الطرفين الى ان تصدّى لهما احد الحضور واطلعهما على كتابة معهُ من سفارة باريس فنظروا فيها ثم نظر بعضهم الى بعض وصمتوا

وقرئ كتاب وارد من بيروت وكلهُ امل وتأكيد وتفاؤل بنيل المراد. فقال احد العلماء اوصوهم ان لا يسرفوا . ثم قرئ كتاب وارد من لبنان يشكو كاتبهُ فيهِ من احد المأمورين ويقول اننا نظنهُ جاسوسًا وطلب ابعادهُ فكلّف احد الحضور بالسعي في نقلهِ الى ولاية اخرى

ودار الكلام على الخطة التي يراد اتباعها في كل انحاء الولاية بناء على الكتاب المسهب المرسل من سفارة لندن . ومدار هذه الخطة اثارة الرأي العام الاوربي باعمال تستفز الاوربيين الى "التداخل" ولا خوف من فوز المعتدى عليهم لان دولة عظيمة ستمنعهم من ان يعضدوا بعضهم بعضًا ولا يتسع لها مجال التداخل لان الدولة المناظرة لها توقفها عند حدها وتحبط مساعيها وتمنعها من ازدراد اللقمة التي اختطفتها فتحصل الغاية المطلوبة من غير ضرر كبير

وكان بين الحضور رجل اشيب تدلُّ ملامح وجههِ على انهُ عرك الدهر وذاق ما فيهِ من خلٍّ وخمر وكان صامتًا لا يتكلم ولكن وجههُ يدلُّ على انهُ كان يتتبع المتكلمين ويزن كل كلمة فلما رأى انهم فرغوا من الكلام التفت الى رئيس المجلس وقال لقد علمتنا التجارب ان العامّة لا تقف عند حد محدود اذا أُطلق لها العنان والذي اخشاهُ هو ان النتيجة لا تكون حسب التقدير فلو نلنا بغيتنا وافتديناها برجل او رجلين او عشرة او مئة لهان الامر وقلنا ويل اهون

من ويلين ولكنني اخاف ان نطلق العنان للغوغاء فيسرفوا في القتل والتنكيل فتفقد البلاد جانباً كبيراً من سكانها الذين عليهم اعتمادهم في الصنعة والتجارة ويتسع المجال للتداخل الاوربي فوق ما نريد . فهما بالغد في التحذير لكي لا يسرفوا لا توفي الامر حقّه ولا بدّ لما من انتداب اناس يعوّل عليهم لكي يديروا هذه الحركة ضمن حدودها المعقولة فوافقوهُ على رأيهِ وانتدبوا ثلاثة ارسلوهم الى بلاد الشام لهذه الغاية

في الليلة التي اجتمع فيها وكلاء الدولة في الاستانة للنظر في امر يمكّنهم من ابدال الحالة الحاضرة باصلح منها اجتمع ثلاثة من المرابين في بيت الخواجه بخور بدمشق والبيت في حي اليهود يوصل اليهِ بزقاق ضيق لا يسع الاّ اثنين يمشيان معاً وكذلك باب البيت ضيق واطئ يضطرّ الداخل منهُ ان يحني رأسهُ حين دخولهِ ولكن البيت واسع رحب في دارهِ فسقية كبيرة يتدفق الماء منها والارض حولها مرصوفة بالرخام المجزّع وفيها دوائر غرست فيها اشجار الليمون والريحان وامامها ديوان عضائدهُ من الرخام الناصع البياض واو اب الغرف التي حولهُ يحيط بها قوائم من الرخام المنقوش نقشاً بديعاً يتخلّل بعضهُ شرفات لها اساطين وحنايا مفرغة

ويدخل من هذه الابواب الى غرف كبيرة مفروشة البسط العجميّة على جوانبها مقاعد من المخمل المعرّق او الحرير المحبّر تنار بمصابيح مدلاّة من السقف زجاجها ملوّن . وفيها منصات عليها مصابيح اخرى من نوع الطلمبا يوقد فيها زيت الزيتون . وفي وسط الغرفة كانون كبير من النحاس الاصفر اوقدت فيهِ نار الفحم لتدفئتها . فدخل الثلاثة غرفةً من هذه الغرف وتداولوا في الانتقال الى بيروت لان اصدقاءهم في اوربا ولا سيما في باريس ولندن كتبوا اليهم انهُ يخشى من حرب اهلية في بلاد الشام وهم لا ناصر لهم دايَة فئة علمت تطمع باموالهم وتسلبها اما بيروت فلا يخلو مرفأوها من سفينة اجنبيّة يلجأون اليها اذا دعت الضرورة

وقال واحد منهم اني لا ارى ما يخشى منهُ فبالامس استدان امير من امراء لبنان عشرين الف غرش من محلنا في بيروت لتزويج ابنتهِ فما دام الناس يهتمون بالانفاق على افراحهم فهم غير مشغولي البال بامر مهم مثل الحروب الاهلية

فقال آخر وانا جاءني من ابن خالي في دير القمر ان الناس هناك لاشغل لهم لاّ صب الرصاص وعمل الفشك (الخرطوش) وقد اخبروهُ صريحاً انهم ينتظرون ثورة عامة

فقال الخواجه بخور وهذا هو الصواب فان عملاءنا في كل مكان يقولون ان الفتنة كامنة الآن كالنار تحت الرماد ولا بدّ من ايقاظها قريباً ورأيي ان نستشير الامير المغربي في امر انتقالنا فاني اعتقد فيهِ الاخلاص . فاجمعوا على ان يستشيروهُ ويفعلوا حسب مشورتهِ

الفصل التاسع

العرس والميدان

خُصّت بلاد الشام باقليم لا اعدل منهُ على وجه البسيطة ساحلها من المنطقة الحارّة ينبت فيهِ النخيل والصبر والبرتقال ويقتني سكانهُ الابل لحمل اثقالهم . وجبالها يكللها الثلج اكثر فصل الشتاء والربيع وينبت فيها الارز والبربريس وتقيم فيها الدباب والارانب . والبلاد بين بين الاعتدالُ بعينهِ لا ينبت نبات في المنطقة المعتدلة الاَّ ويجود فيها — التين والزيتون والكرم والتوت واللوز والجوز والمشمش والتفاح والليمون والرمان والصنوبر والسنديان والدلب والشربين والورد والياسمين . كل شجر مثمر وغير مثمر وكل نبت مزهر وغير مزهر . فصول اربعة تتوالى في مواقيتها كأنها جارية على قواعد الحساب . الخريف بوسميهِ يعدُّ الارض للزرع والشتاء بمزنهِ يخترق طبقاتها ويروي جذور اشجارها ويمدُّ مياه ينابيعها ويفعم غدرانها وانهارها ويأتي الربيع بشآبيبهِ فيروي نباتها حتى يزهر ويثمر ثم تمسك السماء عن المطر ستة اشهر متوالية بين الاعتدالين من اواسط الربيع الى اواسط الصيف فتنضج الاثمار وتتيسر الاعمال

واذا ترفّه المرء واراد الابتعاد عن الساحل فلا اكثر من ان يسير ساعتين فيصل مكانًا هواؤهُ عليل وماؤهُ نمير كأنهُ انتقل من وادي النيل الى جبال الالب

ولكن مهما كثر الخير والمير في بلاد صغيرة كبلاد الشام لا تستوفي اسباب الحضارة ما لم يكن لاهلها بضاعة يتجرون بها حتى يشتروا بثمنها ما لا يجدونهُ في بلادهم من الحاجيات والكماليات فاذا كثر عندهم الحديد فقد ينقصهم النحاس واذا كثر الحرير فقد ينقصهم الكتان واذا كثرت الفضة فقد ينقصهم الذهب . ولقد كان السوريون اهل تجارة من قديم الزمان بل هم اول من ركب السفن وخاض البحار وضرب بالقوافل شرقًا وغربًا وامتدت تجارتهم من الهند الى اسبانيا على طول نصف الكرة الشرقي وساروا بسفن سليمان الى جنوبي افريقية وما ذلك الاَّ لانهم وجدوا في بلادهم من البضائع ما تروج سوقهُ في سائر البلدان . وتقلبت الدول وكرت القرون بغيرها واهالي الشام يسعدون ويشقون ولكنهم لم ينفكوا عن التجارة برًّا وبحرًا ومرّت بهم سنون تشيب الولدان وابتلوا بولاة كانهم زبانية الجحيم ولكنهم لم يفقدوا خصب ارضهم وكبر همتهم

الزمن الذي حدثت فيهِ حوادث هذه الرواية سُبق بقرون كلها ظلم جور وارهاق تلتها فترة صغيرة ساد فيها الامن الفترة التي استتبّ فيها لامر للامير بشير الشهابي المعروف

بالكبير ثم لابرهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر. في هذه الفترة عاد الناس الى زراعتهم وتجارتهم فنقبوا اراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دود الحرير وبعثوا به الى فرنسا فتدفقت عليهم مبازيب النضار . رجل واحد من اهالي عمشيت لا من الامراء ولا من المشايخ كسب من تجارة الحرير ما استطاع ان يوفي به الاموال الاميرية عن بلاد البترون وبلاد جبيل وبلاد الفتوح دفعةً واحدةً . هذا الرجل واسمهُ ميخائيل ضوبيا اقام في عمشيت قريتهِ وجعل يشتري الحرير من اهالي البلاد المجاورة ويرسلهُ الى مرسيليا وبلغ من علو همتهِ انهُ كان يملي على خمسة من الكتّاب في وقت واحد كانهُ نبوليون الاول . ولا يستطيع الانسان ان يدير الاعمال الكبيرة الاَّ اذا كان كبير الهمة

واقتنى غيرهُ قوافل من الجمال او البغال لنقل بضائع المشرق الاقصى من العراق الى دمشق ومنها الى ساحل بيروت وحمل بضائع اوربا الى داخلية البلاد لنقلها الى المشرق الاقصى . فلا تمرُّ بك ليلة الاَّ وتسمع غناء المكارين يحدون لجمالهم واجراس بغالهم تحيي ظلمة الليل وتطرب آذان النيام فتتدفق ينابيع النضار على جانب كبير من السكان . خلة جرى عليها اهالي الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها اكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون اخرى والدهر في الناس قلّب

وكان امراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زرع التوت وتربية دون الحرير فصارت مزارعهم في البقاع تأتيهم بما يحتاجون اليهِ من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوّم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر منها الزيت فتمتعوا برفاه العيش وظهر ذلك في اعراسهم ومآتمهم

وكانت الاميرة صفا مخطوبة للامير قاسم من امراء الحدث وجاء الوقت المعيَّن للاحتفال بزفافها اليهِ فجاءها التجّار والصاغة من بيروت بالاطالس والمقصبات الحلبيَّة والحلى المختلفة من عقود وقلائد وخواتم واساور واقراط وضفائر مرصعة باللؤلؤ والماس والياقوت واهدى العريس اليها هدايا فاخرة من انسجة دمشق ودير القمر ومصوغات بيروت وصيداء . وجاء اليوم الموعود للخروج بموكب العروس من كفرشيما الى الحدث وهو يوم احد قبل الصوم الكبير وكانت الاميرة جلنار ام الامير قاسم تخاف ان يكون يوم العرس يوماً مطيراً فنذرت لمار انطونيوس انهُ اذا كان اليوم صحواً تصنع لهُ اكليلاً من الذهب وتعلق امامهُ قنديلاً من الفضة . وعلم المطران بنذرها فلما انحبس المطر من اول الاسبوع وغابت الشمس يوم السبت تحيط بها غيوم حمراء خاف ان يأتي الامر على غير ما يودُّ ولكن اصبح الصباح يوم الاحد ولا غيم في السماء

ولا ضباب في الجو وفاضت اشعة الغزالة على ربى لبنان وانتشرت على ساحل بيروت

وفاخر بحرُ الروم لون سمائهِ وسارت جواريهِ عليها المطارفُ
وسالت على الكثبان غدران عسجدٍ من الشمس فيها الظل غرثان وارفُ
وساحل بيروت الخصيبُ ونهرها وتلك الروابي والقرى والصفاصف
بساط وسيفٌ والنهود ولؤلؤٌ نضيد على صدر الربى متراصف

وكان الامراء آل شهاب وآل ابي اللمع قد وفدوا الى الحدث من جهات مختلفة الى كلٍّ منهم بموكبهِ من الخدم والحشم فلم تعد تسمع الاَّ صهيل الخيل واطلاق البنادق واصوات الطبول والدفوف والزمور وكلما وصل وفد منهم قوبل بالاغاني والزغاريد وقامَ العطر ومجامر البخور واجتمع اولاد القرية ووقفوا عن كثب مبهوتين مدهوشين والسعيد منهم من أُعطي فرساً ليمشي بهِ اما آباؤهم فقاموا على خدمة الضيوف والاتباع كأنهم كلهم من خدم الامير

وقام الامراء في الصباح واعتلوا صهوات خيولهم فتألف من ذلك موكب كبير يأخذ الطرف مهابةً وجلالاً سارت في مقدمتهِ الاميرة جلنار ام الامير قاسم على جواد اشهب يتهادى بما عليهِ من الحلى والى جانبيها اثنان من خواص اهل القرية ماسكان بركابها ووراءها سائر الامراء وامامهم وخلفهم خلق كثير فيهِ المغنون والمطبلون والمزمرون . وسار هذا الموكب الهوينا وكلما مرَّ ببيت قابلتهُ نساؤهُ بالزغاريد وقامَ ماء الورد الى ان خرجوا من بين البيوت وساروا في الارض البراح بين الحدث وكفرشيما وكان الماء قليلاً في نهر الغدير فقطعوهُ ولقوا هناك وفداً من كفرشيما آتياً لاستقبالهم والترحيب بهم فتصافحوا وهم على ظهور الجياد واكثر رجالهم من اطلاق البنادق ثم نُصب الميدان في سهل فسيح على ضفة الغدير فانقسم الامراء فريقين وجعلوا يترامون بالجريد يهجم الفارس منهم والجريدة في يدهِ ويرمي بها خصمهُ فتخرج كالشهاب الثاقب لان زخم الفرس يضاف الى قوة الساعد ويراها الخصم مقبلة اليهِ فيحيد من طريقها او يغطس تحت بطن جوادهِ او يستلقيها بيدهِ او يدفعها عنهُ بجريدة اخرى . والفتيان من القريتين يجولون في الميدان وكلما وقعت جريدة التقطوها واعطوها لفارس من الفرسان . وظلَّ اولئك الامراء في كرٍّ وفرٍّ وهجوم ودفاع الى ان تصبَّبت جباههم عرقاً وسبحت جيادهم في عرقها واذا بفتى يصرخ ويقول اخ يا عيني يا امي . كان هذا الشاب يلتقط الجريد فاصابتهُ جريدة ذهبت بعينهِ فالتفَّ عليهِ غيرهُ من الفتيان واتوا بهِ الى الامير الذي ضربهُ وقالوا لهُ انظر يا سيدي عبدك فلان طارت عينهُ . فقال اربطوها لهُ ثم نادى وكيلهُ وقال لهُ ارسل الى هذا المسكين كيس غلة وخمسمائة غرش فتقدَّم ابو الفتى وقبَّل

د الامير ودعا لهُ بطول العمر . ومن بين يسهل الهوان عليهِ

وكان الامير احمد ارسلان في جملة المدعوين الى هذا العرس وذكَرهُ للسر هنري دمونت في احدى خطراتهِ الى بيروت فود السر هنري ان يكون حاضرًا ليشهد الميدان لعب الجريد. فدعاه الامير احمد الى الحضور وكان يعلم ان الميدان سيصعب على ضفة الغدير وافاهُ السر هنري الى كفرشيما وسارا مع امرائها الذين لاقوا امراء الحدث ووقفا يريان لفرسان تكرُّ وتفر ولم يشتركا معهم وحاول كثيرون اغراء الامير احمد بالنزول الى الميدان لم ينزل معتذرًا بوجود السر هنري معهُ . وهو في الباطن يخشى حدوث ما لا يرضاهُ لان لاحقاد الكامنة بين النصارى والدروز كانت قد احدثت في الظهور . وتطاول احد الفتيان عليهِ ووجَّه جريدة اليهِ وهو يقول خذها يا امير احمد ولا تقل اني غدرتك فاستلق الامير احمد لجريدة بمجن كان في يدهِ ولم يحذفهُ بها . وكان لما الامير عباس اخوا الاميرة سلمى هناك فبادرا الى الذي رمى الجريدة وتكاثرا معهُ لان امرهما اوجست شرًّا من حضور ابن اختها فاوصت ابنيها ان لا يفارقاهُ وقالت لهما ان العيون محمَّرة فلا تدعا ابن خالتكما وحدهُ

ولما انتهى الميدان واصيب الفتى بجريدة فقئت عينهُ . قال بعض الحضور ان هذا الامير الافرنجي لا بد وان يكون عارفًا بالطب فاتوا بالفتى اليهِ فطر وادا العين قد فقئت تمامًا فقال للامير احمد لا ارى ان رد النظر اليها في الامكان ولكن يجب ان تعالج لكي لا تلتهب ويمتد الالتهاب الى اختها ثم نزع ورقة من جيبهِ وكتب لهُ سطرين الى طبيب في بيروت ليذهب اليهِ بها فاخذها الفتى وقبل يدهُ

ثم سار الموكب في طريقهِ كأن عين ذلك الفتى ذبابة كانت على رأسهِ فطارتها الجريدة عنها حتى اذا بلغ الموكب دار العروس في كفرشيما علت الزغاريد وصلقات البنادق واصوات الطبول والزمور وبادر رجال القرية الى استلام الخيول والمشي بها . وتصايح الامراء ودخلت ام العريس واعتنقت كنتها . ثم قُدمت القهوة والشبقات ومُدَّت اسمطة الطعام من الحرفان المحمرة والديوك المقمرة والرز المفلفل والالبان والامساك وانواع الحلوى . ولما فرغ الامراء من الطعام جلس الاهالي والاتباع افواجًا افواجًا حتى اذا امتلأت الخواصر وفرغت الجفان انتظم الموكب ثانيةً وقامت العروس فودعتها الاميرة سلمى وكاد يغمى عليها واعتنقتها الاميرة هند وهي تبكي لانها ربتها بعد وفاة امها فكانت مثل ام لها وودعها ابوها وزوجهُ لانهُ كان قد تزوج بعد وفاة امها . فخنقت العبرات الاميرة صفا لا سيما وانها تذكرت امها وشعرت حينئذٍ باليتم شعورًا اليمًا لم يخامر قلبها من قبل . ثم اركبوها وساروا بها الهوينا وهم ينشدون

الاناشيد ويطبلون ويزمرون الى ان وصلوا الى دار العريس فقام المطران ولفيف الكهنة بصلاة الاكليل ووزعت الهدايا من اكياس القصب ومناديل الحرير ومدّت اسمطة الطعام وزينت الدار وما حولها تلك الليلة واطلقت فيها السهام النارية

وبينما الناس في لهو وطرب يغنون ويزمرون ويطلقون السهام فتشق عنان السماء علت الجلبة والضوضاء وهجم القوم بعضهم على بعض حتى اختلط الحابل بالنابل . فان شابًّا كان يطلق سهمًا فاصاب فتى من اولاد الامراء في راسهِ فوقع صريعًا وظن ابوهُ ان السهم ارداهُ فاستلَّ سيفهُ وضرب الشاب بهِ فانصرلهُ رفاقهُ وهجموا على الامير وهجم اعوانهُ عليهم وعلا الصياح حتى اختلط الجمع كلهُ احتلاطًا وخرج العريس ومن معهُ وخرج النساء ايضًا وتركن العروس في حجلتها . وكان الظلام حالكًا خارج البيت الاّ حيث توقد المشاعل فتركها الرجال الموكلون بها واختلطوا بالغوغاء ومضت ساعتان من الزمان وذلك الجمع كالبحر الزاخر ثم خمد الهيجان رويدًا رويدًا فانجلى عن كثيرين من الجرحى والعريس في جملتهم فانهُ اصيب بعصيٍّ شدخت رأسهُ فعادوا بهِ الى داخل الدار ولكنهم فتشوا عن العروس فلم يجدوها . وتناقل النساء هذا الخبر وبلغ الرجال فجعلوا يفتشون في جوانب البيت وغرفهِ وعادت الضوضاء ومضت ساعتان في التفتيش على غير جدوى

وتضاربت الاقوال حينئذٍ فمن قائل ان الجن خطفت العروس بجلالها ومن قائل ان اميرًا آخر يحبها وتحبهُ ولكن اباها ابى تزويجها منهُ فارسل اتباعهُ اختطفوها وثم الذين صوَّبوا السهم الى ذلك الفتى لكي يقلقوا الجمع فيلهو عنهم . ومن قائل انها كانت تريد ان تترهب ولكن اباها منعها من ذلك وابى الاّ تزويجها فجاءت الراهبات واختطفنها . لكن الاكثرين كذبوا هذا القول الاخير احلالاً للراهبات عن هذا العمل المنكر . وكيفما كانت الحال فان التفتيش استمر الى الصباح ولم توجد العروس ولا وجد اثرها وقام في نفوس الاكثرين ان الجن اختطفوها

وجلست الاميرة همد مع ابنتها تلك الليلة وقالت لها لا ادري لماذا اشعر بضيق في صدري على فراق صفا مع ان حماتها تحبها كما تحب الام ابنتها وقاسم من نجابة الشبان نعم انهُ لا يقاس باحمد ولكنهُ افضل من كل اولاد عمهِ . هل رأيتِ احمد بين الحضور هو والامير الانكليزي . يظهر لي ان احمد تغير كثيرًا في هذين الشهرين فصار قليل الكلام كثير التفكير

فقالت الاميرة سلمى الم تسمعي ما قال ابي انهم يطبخون لنا طبخة ويدبرون مهلكًا

فقالت امها ان احمد اعقل من ان يغترّ بنفسهِ و ن بلاد كسرى كلها قاعدة وفرنسا منا والانكليز لا يساعدونهم ولو تظاهروا بمساعدتهم . ان كل احد يقول الآن ان هذا لامير الانكليزي جاء مع احمد لانهُ حيف لهُ مع انهُ جاء لكي يشاهد العرس والميدان لا غير كما قال لي احمد نفسهُ وقد اوصيت اخويك ان لا يفارقوهُ هنيهةً من امر يحدث . ان احمد ن اعقل الشبان وهو يحبك جدًّا وقد قال لي بالامس اكثر من عدت تالفتين اليهِ

فصمتت الاميرة سلمى ولم تقل شيئًا وانتهى حديث على هذه الصورة . ولكن لما خلعت ابها لتنام فكّرت طويلاً في امر يشغل بالها ودرفت دمعتين صحيحتين ثم القت رأسها على سادتها وسلمت نفسها لسلطان الكرى وهي لا تعلم شيئًا ممّا جرى لابنة عمها

وعاد السر هنري الى بيروت تلك الليلة وجلس بعد العشاء يكتب لامهِ ووصف لها ا رآهُ في يومهِ . وصف الميدان ولعب الجريد وتهادي اجياد العربية بما عليها من الحلى . ملابس الامراء المقصبة . واشار الى الفتى الذي فقئت عينهُ وعجب من رضوح الناس للذل اعتقادهم القضاء والقدر . ثم وصف ما رآهُ في بيت العروس والمدعوين في وصف المآكل جلوس الامراء حول السماط على المساند وانتقل الى وصف الاميرات وملابسهنّ وحلاهنّ . كان قد رأى الاميرة سلمى واقفة الى جانب ابنة عمها الاميرة صفا كأنهما بدران او لؤلؤتان لا شرع سيفي وصفهما ارتجف القلم في يدهِ وأرتمى عليهِ فكتب يقول احاف ان اصف لكَ جمال هاتين الاميرتين فتطّلع اقلين على كتابي وتقول اني نسيتها حتى صرت ارى غيرها جميلاً مثلها . الجمال الشرقي غير الجمال الغربي . الجمال الشرقي مسلّح والجمال العربي اعزل . تنظر لفتاة الشرقية اليكَ بعينيها فتشعرين كأنها راشت سهامها ورشقتكِ بها اما الفتاة العربية تنظرين في زرقة عينيها كاسًا سائغة تودين ارتشافها . ثم قال

لم اهتدِ حتى الآن الى المغارة ولكن بلغني اليوم انهم عثروا على مغارة قرب التنويفات فيها اسلحة قديمة وسامضي الى هناك في هذين اليومين . اذا وجدتُ رفات جدي والوثيقة فسأُسمّي نفسي امير لبنان وآتي باقلين الى هنا فتكون اميرة لبنان هذه احلام اهدس بها احيانًا ولكن قلبي يحدثني ان اقلين نسيتني انساها اياي اللورد كارو الذي كتبت لي عنهُ . اخبريني عن كل ما قالهُ لها بالتفصيل وعن مقام هذا اللورد بين قومهِ فانني لا اعرفهُ

ثم ذكر لها امورًا اخرى عن احوال الجبل وثورة الافكار فيهِ وختم الكتاب وهو يود الرجوع الى وصف الاميرة سلمى وقلمهُ لا يطاوعهُ كأنهُ يرى حرمًا حُظر عليهِ الدنوُّ منهُ

الفصل العاشر

المجمع البطريركي

شمالي لبنان مقر المردة ومعقل رجال الدين . عصى قياصرة الروم ولم يخضع لخلفاء المسلمين بل كان ينازعهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائهِ السيادة المطلقة من اورشليم الى انطاكية يحاربون بني امية كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين اراخنة القسطنطينية فعاون الروم العربَ عليهم وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً فضعف شأنهم رويداً رويداً الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بالانتخاب فبنوا اديرتهم على كل معقل واستأثروا بجانب كبير من املاك البلاد

في دير من هذه الاديرة فوق زوق ميكائيل شمالي الطريق الى بزمّار دير بكركي لرهبنة انشأتها فتاة حلبيَّة اسمها هندية جاءت كسروان واشترت اولاً دير ماعبدا المتمرّ وانشأت فيهِ الرهبنة ثم استحسنت موقع بكركي وطلبت من رهبانهِ المقايضة فاعطتهم ديرها واخذت ديرهم وبنت فيهِ بناءً كبيراً انفقت عليهِ اربعين الف ريال وكانت عازمة ان تزيدهُ فخامةً واتساعاً فجاءتهُ بثلاثين الف حجر منحوت وباعمدة عظيمة من الرخام . ولكن قام عليها مبغضوها وشانئوها ونسبوا اليها السحر والضلال فاضطرَّ البطريرك يوسف التيان الى الاستعفاء لانهُ كان من ناصريها وحرمتها الكنيسة وحرمت اعمالها وحلّت رهبنتها وبات الدير قفراً لا يأوي اليهِ غير البوم ويقال ان احد المطارنة احرق الثلاثين الف حجراً كلساً زاعماً ان الحرم تناولها

وكان بطاركة الموارنة يقيمون في دير قنوبين في شمالي لبنان فاختاروا الاقامة في كسروان في الايام الاخيرة لانها مقر وجهاء الموارنة فكانوا ينزلون في الدير الذي يختارونهُ الى ان تنصَّب البطريرك يوسف اسطفان فعقد المطارنة مجمعاً في دير مار يوسف الحصن في غسطا حضرهُ القاصد الرسولي وقرروا في جملة ما قرروهُ ان يكون الكرسي البطريركي في بكركي ثم تكرَّر هذا القرار في مجمع آخر ولكن لم يعمل بهِ . فلما تنصَّب البطريرك يوسف حبيش عمل بهِ واقام في بكركي وحلفهُ البطريرك يوسف الخازن فراد البناء . وامام الدير ميدان صغير في آخرهِ شجرة ميس قديمة العهد وكثيراً ما يمشي البطريرك والمطارنة فيهِ يتلون فروض الصلاة

وفي تاريخ الدويهي ان بكركي كانت بلدة كبيرة في اوائل القرن الخامس عشر والمنظر منها جميل جداً يطلُّ على كل بلاد الساحل من جبيل الى بيروت وما وراءها جنوباً

ان حوادث الجبل المشار اليها في الفصول السابقة جعلت بطريرك الموارنة يدعو المطارنة
وه الطائفة الاجتماع والمذاكرة في ما يجب عملهُ اذا قام الدروز لمحاربة النصارى .
تع لديهِ جماعة منتقاة لا تتجاوز اثني عشر نفساً وهم مطران بيروت ومطران صور وصيداء
ران عكاء ومطران قبرص ومطران الشام والخوري نعمة الله الدحداح كاتب السر
وري يوحنا الحاج قاضي النصارى . ومن الوجوه الامير امين منصور ابو اللمع ويوسف بك
م والشيخ كنعان الخازن والشيخ صالح الخازن وترجمان قنصلاتو فرنسا في بيروت

المجلس رهيب البطريرك في صدره والمطارنة على جانبيهِ واكثرهم شيوخ عركوا الدهر
ضهم درس في رومية واطّلع على اخبار الامم الغابرة والحاضرة وعرف تاريخ لبنان وما
نب عليهِ من ايام النعيم والبؤس . فدارت المذاكرة على احوال الجبل من حين تولاّهُ عمر باشا
سوي فانهُ تولى امارتهُ واتخذ بتدين داراً للولاية واتخذ لهُ مديرين الشيخ خطار العماد
شيخ منصور الدحداح الاول درزي والثاني ماروني وولى الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن على
سروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على الفتوح . وولى على بلاد جبيل والبترون والكورة
ثة من المشايخ الحمادية فنفرت الخوازنة من النصارى ولا يأتهم الثلاث الى واحد منهم ونفرت
ارى جبيل والبترون والكورة لان الحمادية مرفوعة ولا يتهم عنهم منذ نحو ستين سنة .

ان عمر باشا اتخذ النصارى احلافهُ ليرضوا بولاية الدولة وجنّد منهم الجنود وجعل
نتيري وابا سمرا قائدين عليهم وكتب مصطفى باشا والي بيروت الى البطريرك يثني على
برتهِ في خدمة الدولة وارسل اليهِ هدية نفيسة ظرف فنجان مجوهراً ولكن الافعال التي فعلها
يب باشا بالدحادحة والدسائس التي دُسّت للدروز لينتقضوا على عمر باشا ويحاربوهُ ثم
سمة البلاد الى قائمقاميتين متناظرتين ثم الى ولايتين وتجدُّد الفتن واستمرارها — كل ذلك
كّن الضغائن والاحقاد في قلوب النصارى والدروز

هذا من حيث اهالي لبنان ونسبتهم بعضهم الى بعض وكأن الحروب الاهلية التي
ستمرت مئات من السنين لم تكفِ لزعزعة اركان الجبل والتنكيل باهلهِ فتسلّط عليهِ عاملان
آخران يرميان بسهم واحد الى غرضين مختلفين الواحد يريد التنكيل بالنصارى لكي يتحزّب
م اهل ملتهم من الدول الاوربيّة ويسعوا في تغيير الحالة الحاضرة والثاني يريد التنكيل بهم
كي يجد سبيلاً لحمايتهم واحتلال البلاد

وكان مدار الكلام في المجمع البطريركي على شؤون الجبل وما يجب عملهُ في تلك
الاحوال وكان كثيرون من الحضور غير عارفين الغاية المقصودة فلما شُرحت لهم بهتوا

وخاف بعضهم عواقبها وكثر الجدال بينهم ولاسيما بين مطران بيروت ومطران عكاء واخيرًا تكلم مطران دمشق وكان مسموع الكلمة لنقواهُ وقال ان نحن جرينا على الخطة التي فصّلها لنا حضرة الترجمان فقد لا يكون الضرر جسيمًا في نواحي لبنان ولكن المدن البعيدة كدمشق لا تسلم من الافراط ونحن هناك شرذمة صغيرة فلا تبقى منا بقية وما فائدتنا من اصطلاح الاحوال بعد ان نمسي من الغابرين. فقال لهُ الترجمان لقد اوصينا بكم اميرًا مقدامًا عندكم وهو تكفل بمنع كل افراط ولا نظن انهُ يصاب اكثر من اثنين او ثلاثة وقد لا يصاب احد بل يكتفي بنهب بعض البيوت وان كانت حادثة البادري توما اقامت اوربا واقعدتها والقاتل مجهول فكيف اذا حدثت ثورة عامة وبدا اعتداء مقصود

وبعد جدال طويل واخذ وعطاء اجمعوا على ارسال جانب من الرجال المسلحين الى ساحل بيروت وجانب آخر الى جهات زحلة ثم يعود الفريقان من حيث اتيا

الفصل الحادي عشر

المشكل الجديد

ركب الامير احمد وركب معهُ ثلاثة من رجالهِ وهم بالسلاح الكامل لان النزول الى بيروت لم يعد مأمون العاقبة تمامًا. ولما وصلوا الى الغدير اضطروا ان يصعدوا الى مخاضتهِ لان الماء كان غزيرًا فيهِ على اثر الامطار الكثيرة التي وقعت في الشهر الماضي. ووصلوا الى بيت الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحًا. ودخل الامير احمد الى مكتب الكولونل واما رجالهُ فدخلوا غرفة في الدار الخارجيَّة وكان الكولونل في انتظارهِ ومعهُ السر هنري بدمونت فرحّبا بهِ وكان البرد شديدًا مع ان الجو كان صافيًا والشمس مشرقة وقد اوقد الكولونل نارًا كبيرة في موقد حديدي دفئت بها الغرفة. ولما استقرَّ المقام بالامير قال لهُ الكولونل بلغني ان ابناء عمك وجمهور المشايخ عازمون على مقاومة القوة بالقوة وهم على تمام الاستعداد وان دروز وادي التيم متحفزون مثلكم وقد كاتبتم دروز حوران وعربها وكلهم قلب واحد معكم

فقال الامير لايمكننا ان نخفي استعدادنا ولكن غرضنا محصور في الدفاع فاذا اعتدوا علينا اضطررنا ان ندافع عن انفسنا

الكولونل — ان كلمة الاعتداء كلمة مبهمة غير محدودة فغدًا يتهارش كلبان او يتخاصم رجلان او يُقتَل زيات في احد الخانات فتقوم القيامة ويدَّعي كلٌّ فريق انهُ اعتدي عليهِ. وما دامت القلوب ملآنة فلا بدَّ من افراغها وقد كنت اظن ان كلامي لك في السنة

الماضية اقنعك بالعدول عن هذه الخطة وجعلك تقلع عما عمت بالعدول عنها فلا ارى حتى الآن الأ تعاقم الشر واتحمر للقتال وتوالي الاحتجاجات في كل جهة و الصياح لمشورة الوالي فقل لابناء عمك ان مساعدتنا لهم تقف الى حد محدود وودعهم عنهم لا يجدي نفعاً الاَّ اذا كان الحق في جانبهم وان الحق هو الذي يقوينا على الدفاع

الامير — كن على ثقة يا سعادة القنصل اني لا اكون المبتدئين . وانا معكم في ان كلمة الاعتداء غير محدودة المعنى ولكني اؤكد لسعادتكم اننا غير عازمين ان نلجأ الى القوَّة الاَّ اذا طفح الكيل فاذا قتلوا منا واحداً هنا وواحداً هناك واعتدوا علينا في جهات مختلفة فهنا توقى حاصلتنا وبذلوا من الجهد في تسكين العامَّة والعمة لا تستكرُّ ولا تسكت ومحال على احد الفريقين ان يمنع الشرَّ اذا اراده الفريق الآخر لان الفريق الذي يريده تتذرَّع اليه بكل وسيلة فلماذا لا يجتمع القناصل كلهم ويوجبون على النصارى ان يكفُّوا عن الابتداء بالشر

فتنهَّد الكولونل ونظر الى صورة معلَّقة امامهُ على الحائط تمثل ملكة الانكليز والامبراطور نبوليون الثالث واقف امامها يقبِّل يدها فقال في نفسهِ ما ابعد الضواهر عن البواطن وكيف يركب اهل السياسة كل مركب خشن في سبيل الوصول الى مقاصدهم وكان قد بلغهُ اجتماع المطارنة والمشايخ في دار البطريرك فان قواس القنصلاتو سمع الترجمان يتكلم مع المطران وهما راجعان على الخطَّة التي قرَّ القرار عليها وكان قواس قنصلاتو انكلترا سبباً لهُ فاخبرهُ بما سمع وهذا اخبر الترجمان واتَّصل الخبر بالقنصل فرآهُ معقولاً ومنطبقاً على ما اتاهُ الخبر بهِ من وزارة الخارجية بناء على ما وصلها من السفارة في باريس فاستدعى الامير احمد لكي يحذرهُ وكان يعلم ان الوالي يحرِّض الدروز . واذا سمعت كلام الفريقين لا تجد عليهما ممسكاً ولا تقطع بان الشر ينتج عنهُ . واي لوم على من يقول لك كن على حذر واعلم اني لا اتركك اذا رأيت عدوك اعتدى عليك او يقول لك استعد لخصمك ولكنك اذا رأيتهُ اعتدى عليك فلا تقابل القوة بالقوة فتضعف حجتك وتمنع صديقك من مساعدتك بل استمت لخصمك قليلاً فيأتي الصديق لمعونتك وتكون الغلبة اتم . القولان سياسيان محكمان واغراض اهل السياسة لا تنال باقل منهما

هذه الخواطر خطرت كلها على بال الكولونل في تلك اللحظة التي كان ينظر فيها الى الصورة فان الافكار اسرع من الكهربائية في حركتها وهي مثل صورة كبيرة تمثل معركة من معارك القتال او حادثة من حوادث التاريخ تلمحها لمحة واحدة فتتجلى لك تلك الواقعة او الحادثة بملابساتها الكثيرة في لحظة من الزمان

ثم التفت الى الامير وقال لهُ ان الذي اراهُ وتدل الدلائل كلها عليهِ هو انكم اذا

تهيأتم للحرب فالحرب حادثة لا محالة واذا لم تتهيأوا لها لم تحدث واذا حدثت فلا بدَّ ما تدور الدائرة على النصارى وحينئذٍ تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم وربما لا تمضي بضعة اشهر حتى تروا بوارجها في مرفإ بيروت وجنودها على ربى لبنان وانتم ادرى بما تصير حالكم اليهِ حينئذٍ . وقد تقول لي كيف يمكن ان نصل الى هذه النتيجة والوالي يحرضنا على القتال فاقول لك ان الوالي قصير النظر في العواقب وهو واضرابهُ في القسطنطينية يرمون الى غرض آخر وربما تحقق امنيتهم ولكنهم لا يعبأون بكم لان السلطنة واسعة فلا يحسبون حساب بقعة صغيرة مثل لبنان ولكن لو علموا ان العاقبة تكون كما تقدّر الدول الاوربيَّة لعدلوا عن هذا التحريض

فادرك الامير غرض الكولونل تمامًا ولكنهُ كان يرى يدهُ معقولة عن العمل لا سيما وان امرًا آخر شغل بالهُ منذ شهرين من الزمان فان امهُ كانت تحبب اليهِ الاقتران بالاميرة سلمى ابنة خالتهِ وهذا كان غرض خالتهِ ايضًا وكانت الاميرة سلمى تنظر اليهِ كما تنظر الى اخويها واذا كلمتها خالتها في ذلك تلميحًا غيَّرت الموضوع ولم تبدِ الرفض التام فلما دنا زفاف الاميرة صفا طلبت منها خالتها جوابًا صريحًا فاجابتها انت ترين اضطراب الاحوال ياخالتي والشهابيون عن بكرة ابيهم لا يحتملون ذكر الارسلانيين فما هذا وقت النظر في هذه الامور

فعادت خالتها واخبرت ابنها بذلك فزاد انشغال بالهِ وكان قد رأى اضطراب الاميرة سلمى واحمرار وجهها لما شاهدت السر هنري بدموت فاوجس شرًّا حتى لم يعُد يدعوهُ الى الشويفات وكان وهو يكلم الكولونل روز في هذه النوبة ينظر الى السر هنري من وقت الى آخر وهو يحسب انهُ يرى امامهُ خصمًا عنيدًا حتى اذا فرغ من الحديث السياسي التفت اليهِ السر هنري باسمًا وقال لهُ عسى ان تطمئن القلوب فنعود الى التفتيش عن المغارة

فلم يسعهُ الاَّ العود الى المجاملة فقال لهُ لا ارى الآن ما يمنعنا من التفتيش فتعال شرفنا وقتما تريد . فشكرهُ السر هنري ووعدهُ بان يزورهُ بعد ايام قليلة ثم قال لهُ ولكن ما هذا الخبر الذي سمعناهُ وهو ان العروس التي حضرنا عرسها خُطفت من بيت عريسها

فقال الامير احمد نعم وقد اشاعوا ان الجن خطفتها خرافات العجائز والحقيقة مجهولة حتى الآن فمن قائل ان واحدًا من الفلاحين اي من غير الامراء كانت تحبهُ وقد اتفقت معهُ على الهرب ومن قائل انها كانت تريد ان تترهَّب فمنعها ابوها من ذلك لكنها اتفقت مع بعض الراهبات فخرجت الى بيت في جوار بيت عريسها ولبست هناك لبس الراهبات وهربت معهنَّ ومن قائل غير ذلك وابوها غير مهتم بها والفتاة التي لا امَّ لها ليس لها من يهتم بامرها

فقال السرهنكي لمعتمده لا حاجة لاحد ان يتبعنا فيها شيئاً فعسى ان يتدبر اليها فقال الامير كلا وانا قد اتبعه شيئاً من جرأة من يعلم ان لا غير ما يتعلق بالقلائل التي في الجبل وما كان يخاف مرآة من ان يتبعه احد

ثم قام وودّع القنصل والسرهنكي وسلك القنصل معه طريق الجبل الى حيث العداء فاعتذر بانهُ مدعو للعداء عند احد قواده ومرَّ في طريقه على بيت في الحر وهو لا يلتفت يمنةً ولا يسرة مخافة ان يرى ذلك الرجل فيعتصر بكلمة لكن لما خرج كان حسّاً مع الدليل فلما رآهُ قادماً قام لاستقباله ودعاهُ لينزل ويشرب قهوة وعندما قرب اذان الظهر وان عمهُ في انتظاره تجادلهُ ابو نخر وكانت السماء قد غامت وابتدأ وقوع المطر فلم يرَ لهُ بدًّا من التخلص منهُ باية واسطة كانت فودّعهُ واعمل مهمازه في تلك الحوادة وكان عمهُ دار في بيروت يشتي فيها فسار اليهِ مع رجلهِ الثلاثة وهم يعدون عدوًا وكان في الطريق صبية يلعبون تحت المطر فلما رأوا الخيل عادية قاموا ليفروا من وجهها فهرب واحد منهم الى فداسهُ فرس احد اتباع الامير وخرجت امهُ في تلك الحظة لترى سبب عدو الخيل فرأت ابنها يتخبط بين قوائم الفرس فجعلت ترعق وتصيح واجتمع السكان على صياحها وعلت الصوضاء وترجل الامير ليرى ما حلَّ بالولد فترجل رجالهُ معهُ وكان في قهوة مجاورة كثيرون من اهل العطلة فالتفّوا عليهم وكان الولد حيًّا ولكن كسرت ذراعهُ وشدخ رأسهُ وسرف الدم الكثير منهُ واتفق مرور ضابط في ذلك الطريق ومعهُ بعض الجند فراد صياح النساء وعرف الضابط الامير فطلب منهُ ان يذهب معهُ الى الوالي وحمل الجند الولد لكي يصوبوا به الى حيث يقيم طبيب العسكر واعطى الامير احمد ام الولد كل ما معهُ من النقود فرمتهُ بها وهي تقول قتلت ابني وانت تبرطلني بغرشين وحاولت ان تلحق بهِ فردها العسكر عنهُ فجعلت تتناول الحجارة وترشقهُ بها ووقع حجر منها على فرسهِ فرفس وصهل وكاد يتفاقم الخطب وبينما هم على هذه الحال مرَّ بهم الوالي ذاهبًا الى الجامع لاحل صلاة الجمعة فترجل الامير ورجالهُ حالاً ودعاهُ الوالي للذهاب معهُ فوقع في حيرة لا هو يريد ان يخالف امر الوالي ولا هو يستطيع ان يجيبهُ اليهِ وان اجابهُ فقد لا يُسمَح لهُ بدخول الجامع . واذا جاءت المشاكل ضاقت حلقاتها حتى يضيق المرء بها ذرعًا مهما كان رحب الصدر واسع الحيلة . هنا ولد مضرج بالدماء وامهُ تصيح وتستغيث واهالي بيروت يستخفون باهالي الجبل كلهم و يعدونهم فلاحين ولو كانوا امراء ومن نسل الملوك . والوالي الذي يفضل الامير احمد ان يخسر اية خسارة كانت ولا يراهُ في ذلك الوقت امرهُ بالذهاب معهُ والدخول الى الجامع والصلاة فيهِ وهذه مشكلة اخرى لم يكن ينتظرها نعم

ان بعض اعمامهِ تظاهر بالاسلام ولكن ذلك لم يكن من مذهبهِ فوقع في حيرة ولا حيرة الصب

الفصل الثاني عشر

بوادر الحب

بُذلت الوسائل كلها في التفتيش عن الاميرة صفا لا من قِبَل ابيها لانهُ كان قليل الاهتمام بها بل من قبل عريسها ودويهِ فانهم حسبوا اختفاءها عارًا لا يمحى وزادهم قلقًا تلبُّس الامر عليهم فبعثوا بالرسل الى كل ناحية وصوب بعد ان فتشوا بيوت القرية كلها فلم يقفوا لها على اثر وكان يأتيهم كل يوم رجل بخبر جديد فيبحثون و يفتشون فلا يجدون لخبرهِ صحة وجاءهم رجل ذات يوم وقال انهُ كان ذاهبًا الى جهة بسكنتا فامسى عليهِ المساء وعامت السماء فخاف من المطر والليل حالك الظلام والطريق وعر لا يسلك ولا سيما بعد ان مرَّ فيهِ السيل وحرَّبهُ فقصد ديرًا من اديرة الراهبات قريبًا من الطريق وطلب من البواب ان يسمح لهُ بالنوم عندهُ فامتنع البواب اولاً عن اجابة طلبهِ ثم رأى اشتداد الريح خاف ان يموت بردًا اذا لم يسمح لهُ بالمبيت عندهُ ونحو نصف الليل قرع الباب فقام البواب وفتح واذا امام الباب رجلان معهما امرأة في زي راهبة وهم راكبون حيولاً فدخلا بها ووقف الثلاثة في الصحن الخارجي ودخل البواب وقرع الباب الداخلي فجاءت راهبة فحينئذٍ وادخلت المرأة واقفلت الباب وعاد الرجلان من حيث اتيا

فلما سمع الامير ذلك قام في نفسهِ ان هذه المرأة هي عروسهُ نفسها لانهُ شاع وذاع انها كانت عازمة على الترهب فقام من ساعتهِ ونزل الى بيروت واخبر المطران بما سمعهُ من هذا الرجل فاكد لهُ المطران ان الخبر كاذب لان الراهبات لا يقبلن فتاةً عندهن ما لم يأتِ بها اهلها ولاسيما بعد ما حدث من القيل والقال في مسألة الراهبة هندية اما الامير فلم يكتفِ بهذا المعنى بل طلب من المطران ان يرسل من تحقق لهُ الامر فقال ان هذا خاص بسيدنا المطران وسارسل الآن اخبره بما وقع و ننتظر اوامرهُ . وكان مع الامير كيس فيهِ خمسون دينارًا فقدمهُ الى المطران اجرة قداديس فامتنع المطران عن اخذها اولاً ثم اخذها وقال للامير كنت اظن انك تسمح لنا بنصف المطحنة كما سمحت امك بالنصف الآخر حتى تصير كلها للكرسي فحبس الامير لان ايجار المطحنة السنوي ثلاثة آلاف غرش ولو اراد ان يبيعها لبيعت ثلاثين الفًا او اكثر ولكنهُ عاد فرأى حرج موقفهِ فقال للمطران الذي تقولهُ سيادتك يصير . واتفقا على ان يكتب لهُ حجة بالنصف الثاني من المطحنة فتصير كلها للكرسي

وكانت الاميرة سلمى اكثر الشبان يحتفلن بمقدم ابنة عمها لانها عشيرة صباها وقد ربيتا معًا وحالما بلغها الخبر عرفت حقيقتهُ ولكنها كانت تحسب ان بنة عمها عدلت عن عزمها ورضيت بما قسم لها من صفا كانت قد اعتادتهُ بما عزمت عليهِ منذ اكثر من نصف سنة ثم لما لجَّ الامير قاسم في طلبها ولم ترَ منهُ مندوحة من قبولهِ لاسيما بعد ما رأت من اضطهاد زوجة ابيها لها ورأت ان سلمى لا تشجعها على عزمها وعناية ما في الامر انها طلبت منها ان تترك بيت ابيها وتأتي وتسكن معها — لما رأت منها ذلك تظاهرت بالقبول ولم تعدُ تبوح لها بشيء وكانت كبيرة النفس قليلة الكلام فدبَّرت امرها على مهل وكانت تعلم خطر السبيل الذي سارت فيهِ ولكن لسان حالها كان يقول

اذا لم يكن الَّا الاسنة مركبٌ ... ولا يسع المضطر الَّا ركوبها

وكانت الاميرة هند كثيرة الاوهام تصدق ما يقال عن الجن والعفاريت فقام في نفسها ان الجن خطفت ابنة سلفها لكنها رأت الامر فادحًا رهيبًا حتى لم تجسر على التفكير فيهِ بل خافت ان تذاكر ابنتها بهِ وسرَّت الاميرة سلمى باعتقاد امها ذلك لكي لا تضطر ان تكذب عليها اذا سألتها عمَّا تعلمهُ من امر ابنة عمها لكنها بقيت مضطربة البال عليهِ ولم يعد يهنأ لها عيش ومرت الايام وهي لا تزيد الَّا قلقًا. وكثيرًا ما كان يخطر ببالها السر هيري بدمونت فتسرُّ بالخاطر وتجاريهِ او تنفيهِ من ذهنها وتتسلى عنهُ بعمل تعملهُ او كتاب تقرأهُ. ثم كثيرًا ترددهُ في بالها ولم يعد يفارقها بسهولة فقلقت اولًا من جراء ذلك ثم رأت انها مدفوعة الى محبتهِ رضيت او كرهت فلم تعد تحاول المحال بمحو صورتهِ من ذهنها وصارت تودُّ ان تراهُ او ترى منهُ اقل علامة تدلها على ان في قلبهِ مثل ما في قلبها. ولما مضت ايام كثيرة ولم ترهُ ولا سمعت عنهُ شيئًا صارت تقيم في رواق يشرف على طريق الشويفات وكلما رأت فارسًا احدقت بنظرها اليهِ. ولم تنقطع عن لوم نفسها وكثيرًا ما قامت الحرب بين عقلها وقلبها — يقول عقلها هذا شاب اجنبي رأيتهِ مرتين لا غير والمرجح بل المؤكد انهُ نسيكِ الآن ولم تعودي تخطرين ببالهِ فما هذا الغرور بل هذا الجنون. فيجيبهُ قلبها لو لم يكن في قلبهِ عاطفة اليَّ ما كان فيَّ هذه العاطفة اليهِ والَّا فما معنى قولهم ان القلوب شواهد والحب متبادل ناهيك عن انهُ في المرتين اللتين رأيتهُ فيهما نظر اليَّ نظرًا غير عادي وفي المرتين كان الحياء يصبغ جبينهُ وكان يسترق اللحظ واذا نظرت اليهِ غضَّ طرفهُ ولم ارَ شيئًا مثل ذلك في كل الشبان الذين عرفتهم ولا في احمد. ثم يخفق فؤادها وتشعر كأن حجرًا ثقيلًا وضع على صدرها وهي تحاول كتمان ما بها عن كل احد

الفصل الثالث عشر

حل مشكلة

وقف الامير احمد امام باب الجامع وهو يضرب اخماساً لاسداس فضاقت في وجههِ المذاهب وتصبَّب جبينهُ عرقاً بارداً ورأى الوالي حيرتهُ فظاهر بانهُ لم يرَ شيئاً ووقف معهُ يكلمهُ في الصحن والجماعة تصلي وراء الامام ثم دار معهُ ومشيا الى جهة الميضئة وكان يحسن التركية والوالي يسرُّ بحديثهِ وقد علم انهُ آتٍ من دار قنصل الانكليز لكنهُ لم يشر الى ذلك بل حصر الكلام في تغلب النصارى على الدروز في حادثة بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي وكيف انهم اثخنوا فيهم وحرقوا قراهم . قال وانت تعلم غيرتي عليكم وحسباني اياكم سيف الدولة ولكن الصدر الاعظم لم يكن يهتم بشكاوي حينئذٍ الاهتمام الواجب لانشغال الدولة بامور اخرى اهم من مسائل لبنان فلما تمهَّدت تلك الامور اتجه الالتفات العالي الى الجبل وفي النية قصاص الذين سببوا هذه الفتنة . وها عمك وجميع المناصب والمشايخ موافقون على ذلك ويقيني انك انت معهم ايضاً

فقال الامير انا ابن الدولة وعبدها المطيع . وكان كلام الكولونل روز لا يزال يتردَّد في ذهنهِ وهو انهُ اذا دارت الدائرة على النصارى تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم . وصمت قليلاً ثم قال ولكن هل تأذنون دولتكم لي في الكلام بحرية وصراحة . فقال الوالي قُلْ ما تشاء فقال هبْ ان الحرب الاهلية نشبت وانا انتصرنا على خصومنا بمعونة الله وبتأييد دولتكم لنا افلا تكون النتيجة ان دول اوربا ترسل مراكبها الحربية وتحتل البلاد حالاً

تبسم الوالي وقلب شفتيهِ وقال كن مطمئن البال من هذا القبيل فان دول اوربا متخاصمة متناظرة ولا يمكن لدولة منها ان تسعى لاجرى لاحتلال هذه البلاد . واحبُّ ما علينا ان نقع المنازعة بينهم حتى نتخلص من شرهم

الامير احمد . حملك يا افندينا فانا قرأت في التاريخ ان دولة واحدة منهم تحسب حامية المسيحيين في الشرق والدول الباقيات يسلمن لها بهذا الحق

فقطَّب الوالي وجهه لكنهُ قال ان هذا الكلام حبر على ورق فدولة فرنسا تدعيهِ ودولة المسكوب تنازعها فيهِ والحق للقوة ألا ترى ان الفرنسويين ساعدوا محمد علي والانكليز قاوموهم وغلبوهم وانا واثق ان الانكليز معنا في هذه النوبة ايضاً ولذلك لا الومك لاجل تردد ك على قنصلهم ألا ترى انهُ معنا

والتفت الامير احمد حينئذٍ الى اصحابه فرأى الخناصر قد اخذوا في الخروج فقال في نفسه انني اخلص من مشكل واقع في آخر لكنه كان قوي البداهة فاجاب الوالي قائلاً نعم اني ارى منذ كل تشجيع لنا وغيرة على دولتنا ويظهر لي من كلامه ان الانكليز لا يزالون مخاصمين للفرنسويين ولا يهون عليهم ان تفتح فرنسا هذه البلاد

وكانت الجماعة قد خرجت من الجامع كما تقدم فسار الوالي والامير احمد معهُ وخرجا من الباب الخارجي كأنهما صليا مع الجماعة وخرجا معهم وهو امر عادي للولاة والحكام يدخلون المعابد ويقفون في صحنها يتحدثون مع خواصهم في شؤون مختلفة وهم يحسبون انهم اتوا وعبدوا مثل غيرهم كأن الكبراء معفون من القيام بشعائر الدين . ومبرّئ عن الامير احمد لانهُ كان يكره الرياء ولكنهُ لم يكد يسير في الشارع مع الوالي حتى رأى المرأة التي دبس ولدها واقفة لهُ في المرصاد وهي تصيح وتصخب فسأل الوالي عن قصتها فقيل لهُ ان جواد ابن خيل الامير داس ابنها . فوقف وادار رأسهُ الى الامير وشمخ بانفهِ كأن لسان حالهِ يقول لهُ مسكتك وكيف تنجو من يدي . فقال الامير نعم ان ابنها وقع في الطريق فرفسهُ فرس رجل من اتباعي ولكن المسألة عرضية

فقال الوالي ألم يدسهُ فرسك . فقال الامير كلاَّ بل فرس رجل من اتباعي وهو لهُ ليس لي ومع ذلك فالمسألة عرضية وقد نقل الى المستشفى

فاسف الوالي على ما بدر منهُ واراد ان يمحو تأثير كلامهِ من ذهن الامير احمد فدعاهُ لزيارتهِ حينما ينزل ثانية الى بيروت وقال لرئيس الضابطة وكان سائرًا وراءهُ خذ هذه المرأة من هنا ولا تدعني ارى وجهها . ثم ودع الامير احمد وسار في طريقهِ فوقف الامير الى ان ابعد عنهُ ثم ركب جوادهُ واسرع الى بيت عمهِ وهو لا يصدق بالنجاة من هذه المشاكل المتوالية

فلما وصل الى بيت عمهِ وجد عمهُ والبعض من مشايخ البلاد في انتظارهِ فهنأوهُ بالسلامة لان احد اتباعهِ كان قد سبقهُ الى هناك واخبرهم عن التقاء الوالي بهِ واخذهِ معهُ الى الجامع بعد ما جرى للولد ما جرى وكانوا يخافون ان يُمنع من دخول الجامع مع الوالي او يأخذهُ الوالي بجريرة الرجل الذي داس فرسهُ الولد فتفضي الحال الى ما لا تحمد عقباه فلما وصل قصَّ عليهم ما جرى لهُ مع الوالي في صحن الجامع وكلام الوالي لهُ وكانوا كلهم من رأي الوالي ويظنون ان انكلترا تساعدهم نكايةً في فرنسا أما هو فاكَّد لهم ان انكلترا لا تساعدهم بل تطلب منهم ان يلزموا السكينة ولو اعتُدي عليهم . فقالوا لهُ اذن تكون العاقبة

وخيمة علينا ولا نعود نستطيع السكن في البلاد بل نضطر ان نرحل منها واروه مكاتيب واردة اليهم من دروز حوران ووادي التيم فقرأها وتمعن فيها مليًا وجاراهم في الحديث . ثم جلسوا للطعام وغيّروا موضوع الكلام امام المقدم وجلسوا بعد ذلك ينظرون في تدبير المال اللازم لما يقصد من الاعمال لان الوالي وعد بكل مساعدة حتى بالرجال والسلاح ولكن خزينتهُ افرغ من جراب ام موسى . وكان الخواجه بخور قد انتقل الى بيروت بعد ما وقف على رأي الامير المغربي فزارهُ عم الامير احمد وطلب منهُ ان يقرضهُ الف كيس اي خمس مئة الف غرش وهو يرهن لهُ ما يملكهُ من الزيتون في صحراء الشويفات واختلفا على المدة ومعدل الربا فالامير طلب ان تكون المدة اربع سنوات ويكون الربا اثني عشر في المئة والخواجه بخور طلب ان تكون المدة سنتين فقط ويكون الربا عشرين في المئة وان الامير احمد يضمن الدين مع عمهِ ولذلك لم يتفقا

وجاء الخواجه بخور حينئذٍ لرد الزيارة ومشاهدة الامير احمد لانهُ كان يعرف اباهُ وكان بينهما صداقة قديمة . ولم تطل اقامتهُ حتى اتصل الكلام الى مسألة الدين . فقال الخواجه بخور لقد بلغت الديون التي استدانها منا جمهور المشايخ والبكوات حتى الآن اكثر من ثلاثين الف كيس وكلها بفائدة عشرين في المئة فلا يخفاكما ان نطلبكم باقل من هذه الفائدة لان النقود صارت عزيزة في هذه الايام ولا سيما بعد ما عقدت فرنسا قرضًا وعقدت سردينيا قرضًا آخر استغرقا كل الاموال التي في ايدينا وانتم تعلمون مقدار القلاقل المنتشرة في البلاد كلها ولولا علمي ان الفوز يكون لكم اخيرًا لان الدولة معكم ما كنت اخاطر بغرش واحد ولكن مع ذلك من يدري ماذا تكون العاقبة

فجعل الامير احمد يتوسّل اليهِ ليتساهل مع عمهِ ويجعل الربا خمسة عشر في المئة ويعفيهُ من الضمان لان عمهُ يستصعب ذلك . وما قالهُ لهُ ان الاملاك التي سيرهنها عمي لك تساوي خمسة آلاف كيس على الاقل افلا ترهنها على الف كيس لقد زدتمونا يا خواجه بخور وهذا ليس من العدل ولا من الانصاف ونحن اصدقاء من زمان طويل

فقال الخواجا بخور ليس في اليد حيلة يا امير احمد وانت تعلم اني لست وحدي وان اولاد عمي لا يتنازلون عن غرش واحد

فاخبرهُ الامير احمد انهُ استدان من بيت طراد ولم يدفع سوى ١٢ في المئة نعم ان المبلغ الذي استدانهُ زهيد ولكنهُ لو طلب منهم الف كيس بهذه الفائدة لاعطوهُ

فاجابهُ الخواجه بخور ان هذا يكاد يكون ضربًا من المحال في هذه الايام وانهُ لو طلب

منهم اليوم ودفع لهم عشرين في المئة لرأى انهم يعتذرون عن اعضائهِ مئة كيس بهذه الفائدة

ولكن كلام الامير احمد عن بيت مراد حلّ عزائم الخواجه بنور فقال في نفسهِ يجب ان نجمع كل اصحاب البنوك الذين يدينون ونتفق على معدل واحد حتى لا يضر بعضنا بعضاً. وبعد جدال طويل اتفقوا على ان يكون معدل الربا ثمانية عشر في المئة وان تكون المدة ثلاث سنوات ويكتفي الخواجه بخور بالرهن ولا يطلب ضمان الامير احمد

ثم التفت الخواجه بخور الى الامير احمد وسألهُ عما اذا كانت الاملاك تساوي خمسة آلاف كيس حقيقةً فقال نعم وهذا لا يقبل الغلط فانها خمس مئة قنطار من اغراس الزيتون والقنطار يساوي خمسة آلاف غرش على الاقل

فقال الخواجة بخور اذاً يمكنهُ ان يستدين عليها الف كيس أخرى فنحن تحت امرك وامر عمك

وعاد الخواجه بخور الى مكتبهِ فوجد اذنهُ اتاهُ تحويل على خزينة بيروت بثلاثة آلاف كيس لان شركاءهُ في لندن وڤينا كانوا يدفعون الاموال في الاستانة ويأخذون بها تحاويل على خزائن الولايات فأسقط في يدهِ لان اليوم كان الجمعة والخزينة مقفلة واليوم التالي السبت لا يستطيع ان يعمل فيهِ عملاً فيضيع عليهِ ربا يومين فجعل يشتم ربان السفينة التي لم توصل التحويل يوم الخميس وعدّ ذلك من جملة النحوس التي توالت عليهِ تلك السنة وعاد الى بيتهِ منغص العيش كأنهُ خسر خسارة كبيرة لا تعوّض

الفصل الرابع عشر

الاميرة صفا

مضى شهران على اختفاء الاميرة صفا ولم يعلم احد مقرها لكن زادت الاشاعات بانها ترهّبت في احد الاديرة وكتب المطران الى البطريرك وبحث البطريرك في الدير الذي اشار اليهِ الامير قاسم فلم يجدها فيهِ ولا وجد ان راهبات الدير يعلمن شيئاً من امرها. وكان ابوها يظن انها هربت مع شاب من الفلاحين فحُرمت ميراثها من امها لان الشاب غني جداً وكان يحبها ويود الاقتران بها ولكن الشهابيين لا يزوجون الفلاحين ولو صاروا من افقر الناس وصار الفلاحون من اغنائهم. وقد قال هذا الشاب لابيها انهُ يتنازل لهُ عن ميراثها من امها وكان وافراً جداً فان امها من نسل الامير بشير الكبير وقد ورثت منها جنائن وبساتين في الحدث والشياح ووطاً نهر الكلب وضياعاً ومزارع في بلاد جبيل وسهل البقاع فمال ابوها الى

تزويجهِ بها ولكن اخوتهُ وابناء عمهِ منعوهُ من ذلك وهي لم تكن تميل الى ذلك الشاب . واتفق انهُ كان غائبًا وقت زواجها فاتهموهُ باحباطها ولكنهُ عاد من غيبتهِ واتضح انهُ لم يكن عارفًا بما جرى لها لانهُ لما رأى اصرار اهلها على تزويجها بالامير قاسم سافر الى مصر لكي يسلوها . فلما رأى ابوها ذلك اشتغل بالهُ وخاف ان يتحقق امر توهُّبها فيطلب منهُ ان يسلمها كل ميراثها من امها وكان كذلك فانهُ بينما كان ذات يوم يفكر في هذا الامر جاءهُ رسول من دير العازرية في بيروت ومعهُ كتاب من ابنتهِ لهُ فلما فضَّهُ وقرأهُ اظلم الضياء في عينيهِ وقام من ساعتهِ وجاء الى بيت اخيهِ الامير عباس ابي الاميرة سلمى لانهُ كان اكبر منهُ سنًّا واوسع خبرة واراهُ الكتاب فارغى هذا وازبد وشتم ولعن وقال لا غير قلت لك لا تدع هؤلاء الراهبات يدخلن بيتك وليس طمعهن بصفا بل بالثمائن والبساتين والاسياع والمزارع ما دمتم لا صقين بهذه الطغمة صيروكم على الارض هذا قاسم الحمار وهم المحنة كلها لتطاول لكي ينتق لهُ عن صفا وانا احلق لحيتي ان كان المطران لا يعلم انها ذهبت مع الراهبات وان ذلك بعلمهِ وبدسيستهِ . هذا امر لا نحتملهُ ولا نطيقهُ لم يقع مثلهُ لبيت شهاب من اول مجيئهم الى هذه البلاد الى الآن اسمع ماذا تقول لك في مكتوبها تقول انها فرحة جدًّا لانها تستطيع الآن ان تصلي لاجل خلاص نفسك وامتداء عمها . من كان يمنعها عن الصلاة وهي هنا ألا يسمع الله في لبنان كما يسمع في ايطاليا ولكن ليس العبرة هنا بل العبرة في قولها انها نذرت لله ان تساعد الفقراء والمساكين بكل ما تملكهُ اي بكل ما ورثتهُ تكفيرًا عن نفس امها لان نفسها لا تزال في المطهر . قم قم لعبوا عليك واخذوا ابنتك ومرادهم ان يأخذوا امرالك . ثم اسمع ماذا تقول انها مسبوطة جدًّا ولكن البرد شديد في تلك البلاد وهي مصابة بزكام شديد جدًّا يتحوَّل معها الى سل في تلك البلاد الباردة وتموت . مَن يذهب من هنا الى ايطاليا في فصل الشتاء غير المجنون

فلم يقل الامير فارس شيئًا بل جلس يفكر في الامر ويمصُّ المصَّة بعد المصَّة من التبغ الذي في يده ويطلق دخانها في الجو حتى عاد وملأهُ سحابة من الدخان وهو يقلب حاجبيهِ تارةً ويرفعهما اخرى كأنهُ يفكر في مسألة اخرى والامير عباس يعيد تلاوة المكتوب وينظر في معانيهِ واخيرًا قال الامير فارس ليس لنا الا قنصل فرنسا فهو محتاج الينا الآن فأذهب اليهِ انا وقاسم ونطلب منهُ ان يرجعها حالاً والا نخرب طرابلس كلها

فقال الامير عباس وهذا لا يكفي بل يجب ان نتهددوا المطران بالرجوع الى الاسلام ان هو اصرَّ على عدم اجابة طلبكم فاني اخاف ان تنفصل فرنسا لا يستطيع ان يفعل شيئًا من

هذا القبيل لان الامبراطورة في بيت لا تكيد من لا تثق بامرّ ولا تجاسر ان تطلب منهم شيئاً والامبراطور في يدها . وعلى كل حال لا بد من اتخاذ بعض الاحتياط الى التفعل والى المطاران

وكتبت الاميرة صفا الى الاميرة سلمى وارسلت الكتاب فمن كسبه الى بيها ليسلمه اليها وهو باللغة الفرنسوية وتقول فيهِ

اختي وشقيقة روحي

اطلب السماح منكِ يا حبيبتي ومن والدتكِ الحنونة لانني فارقتكما في هذه الصورة وقد كنت اعلم لما ودعتكِ وودعتني انني قد لا اعود اراكما في حياتي بالصورة المقدار كانت حينما خرجت من بيت ابي ووقع نظري الاخير على الوجوه التي حجبها عني الماذن التي قضيت فيها زهرة عمري . على الاماكن التي كنت العب فيها معكما والاحجار التي كنت اجلس تحتها . كل ما كنت اتسلى بتربيتهِ من الطيور والرياحين والازهار كل شيء من ذلك له مكان في قلبي ولكن المكان الاول فيهِ هو لكِ ولامكِ ولقبر المرحومة والدتي . آه يا سلمى كم اود ان اراكِ الآن واضمكِ الى صدري ونذهب معاً الى قبر والدتي فنضع خدي عليهِ واغسلهُ بدموعي . صدقيني يا سلمى اني تركتكما كلكما لاجلها لكي اخلص نفسها لا بد من ان يكون الناس قالوا اقوالاً كثيرة واتهموني تهماً لا اصل لها الله يسامحهم اما ان كنت اتعرفي اخترت النصيب الصالح . ولا يحق لقاسم ان يلومني لانني اخبرتهُ صريحاً انهُ لا يستطيع عليَّ ان اقترن بهِ بعد ان كرست نفسي لمخاصي فاومهُ على نفسهِ وكذلك لا يحق لابي ان يلومني ومع ذلك فاني اصلي لاجلهما دائماً كما اصلي لاجل ابيكِ وامكِ ولا تظني يا حبيبتي اني صرت الآن اسعد مما كنت كلاَّ غير اني ارجو ان يغفر الله لي ولكل الذين احبهم . وابي عني تقبيل والدتكِ وتقديم الاحترام لوالدتك

ولما قرأت الاميرة سلمى الكتاب وترجمتهُ لامها جلست الاثنتان تبكيان وتشعر الاميرة سلمى كأن بلاطة وقعت على صدرها فلم تعد تستطيع التنفس ومضت ساعة من الزمان وهي تعود الى البكاء كلما وقع نظرها على امها . وصفقت امها بيديها فاتوها بالنارجيلة والقهوة فجلست تتسلّى بالتدخين وقالت لابنتها هل كنتِ تعلمين يا سلمى عزم صفا على الترهّب . فقالت اخبرتني صفا بذلك مراراً ولما رأت اني لم أُصوّب رأيها لم تعد تكلمني بهِ والظاهر انها لم تصم الاَّ قبل العرس بيوم او يومين

فقالت امها لا تخافي الاَّ من النهر الهادىء من كان يظن ان صفا تقدر على هذه الحيلة

كن ماذا نقول وماذا نتكلم ابولك يشمت بنا وخالتك تشمت بنا وابن خالتك يشمت بنا صمت اولى . قال عمك الله سيذهب الى المطران وتفصل فرنسا هو وقاسم ولكن لا فائدة ذلك وستكون عاقبة تشديدنا انهم لا يعودون يدعونها تأتي الى هذه البلاد . ما خلصنا سيرة القديسة منديه حتى وقعنا في قصة ابنة عمك . غدًا ترين تطويل ألسنة الفلاحين بنا الله يهونها

ومرّت ساعتان وهما في حديث مثل هذا ودخل الامير عباس وجلس الى جانب زوجته ناهما احد الخدم بمنقلة وقال الامير عباس اخذت مني عشرين غرشًا امس ولا بدّ لي من ترجاعها فقالت لهُ ستخسر عشرين فوقها . ثم اخذا يلعبان لكن الاثنين كانا مشغولي البال بلما اتما الدق الاول قالت الاميرة هند هل تظن انهم ينجحون في ارجاعها . فقال لا اظن نهم طامعون باملاكها فان املاكها تساوي اكثر من ستمائة الف غرش ولا بدّ ما توقفها لها للدير وانا خائف على صحتها لانها تقول في مكتوبها الى ابيها انها مصابة بزكام شديد

فتنهّدت زوجته وقالت يجب ان ندير بالنا على سلمى فان اختي كلمني عنها مرات كثيرة حمد ميت حتى ياخذها ولكن هي لا تلتفت اليهِ ولا سيما بعد ان زارنا هذا الشاب الانكليزي

الامير عباس — ماذا تقولين ماذا تقولين الشاب الانكليزي متى زارنا هذا الشاب

الاميرة هند — رأيناهُ مرةً ونحن عند النجمة كل مارًّا هو واحمد ثم دعاهُ احمد لحضور برس ألم تَرَهُ حينئذٍ

الامير عباس — نعم رأيتهُ أهذا هو . نعم رأيتهُ ولكنني لم اسأل عنه

الاميرة هند . يقول احمد انهُ وكيل القنصل وانهُ من امراء الانكليز

الامير عباس . من امراء الانكليز ويكون وكيلاً للقنصل وانهُ يقيم مثل كثيرين من التجار الانكليز

الاميرة هند يقول احمد انهُ من امراء الاغنياء ولكن امراء الانكليز مهما كانوا اغنياء يخدمون في اصغر الوظائف السياسية وقد جاء الى بر الشام لكي يفتش عن قبر واحد من اجدادهِ قال انهُ قتل قرب بيروت ودفن في جهات التويفات او كفرشيما . سلمى تعلم عنهُ اكثر مني فانها سمعت كل كلمة تاتلها احمد وسمعت اشياء اخرى عنهُ من الخدم فاذا كانت تعلق بهِ فهناك المصيبة

الامير عباس لماذا تكون مصيبة الم يتزوج عبد الله بابنة تشرشل بك الانكليزي فان كان هذا الامير كريم الاخلاق شهمًا فلا مانع عندي ولكن ان كان افاقًا مثل كثيرين

من الاقوى [illegible]

[illegible]

[illegible] كتاب كانت [illegible]

[illegible] وحمرّت وجه [illegible]

لكنها كانت سريعة الخاطر تعلم ان سكوتها [illegible]

فقالت له رأيتك كنت مع ابي [illegible]

اسيرتك لكل ما تعلم من هذا القبيل

[illegible] يتفرس في [illegible] وهي مطرقة [illegible]

ولم يتمالك ان يبدي اعجابه [illegible]

وقال اذا جاء احمد الى هنا [illegible]

عمك ولا تدعي احداً يلعب [illegible]

هل تعديني بذلك

فقالت نعم ولكن صفا معذورة لان عمي [illegible]

الى ابنته وحاشتها على ما تعلم

فقال ان كانت صفا معذورة فانت غير معذورة [illegible]

وقد كانت امك تود ان تعطيك لابن اختها ولكن [illegible]

اعترضتها واوقفت الامر

فقالت الاميرة هند ولا ازال اود ان تعير مكرهة لا [illegible]

اما سلمى فلم تتكلم بشيء بل بقيت صامتة وعادت الى [illegible]

القراءة في الكتاب الذي كانت تقرأ فيه

وفي اليوم التالي نزل الامير فارس ابو الاميرة صفا [illegible]

ورارا المطران اولاً فوجداهُ عارفاً بما جرى للاميرة صفا وقال [illegible]

قبلُ . فقال الامير فارس لقد عرفت الآن [illegible]

فقال المطران ان هذا لا يكن بعد ان [illegible] العفة

الاستغراب وقال ان قانون الرهبان والراهبات واحد في كل الد

يدخل اولاً تحت التجربة مدة سنة او سنتين ويحق لهُ ان يتر

فقال المطران هذا قانون رهبنتنا ونحن لا نعلم قانون رهـ

مسرورًا بهذا العمل وقد كتبت الى سيدنا البطرك ليعترض عليهِ وانا اعترضت عليهِ بنفسي لانا لا نسرع مداخلة الرهبنات اللاتينية في طائفتنا ومع ذلك لا اقدر ان اعدكم بنجاحنا

فقال الامير فارس عسى ذهابك الى قصفيا وبسا ما رأيك يا دتك في ذلك

فقال لا بأس اذهبا اليهِ وهو قادر على مساعدتنا اذا اراد

فقال الامير فارس ان لم يساعدنا فانا اعرف كيف افسد لهم الطبخة

فاضطرب المطران من هذا الكلام وقال ماذا تقول يا ابني لا تخلط شعبان برمضان هذه مسألة وهذه مسألة فمسألة امتك مسألة دينية عائليه ومسألة احبل مسألة سياسية وهذه هي الفرصة الوحيدة لنا للتخلص من هذه الحالة التي لا تحتمل فارجوان لا تحركوا ساكنًا

فقال الامير فارس سياسية او غير سياسية فانا لا اسكت ما لم تردوا لي بنتي

فاطرق المطران وهو ماسك لحيتهُ بيدهِ يفكر في الامر ثم قال للاميرين انتظراني هنا حتى اذهب واقابل القنصل

ونادى قوّاسهُ ولبس جبتهُ وسار الى قنصلاتو فرنسا فقابلهُ القنصل بالترحاب وتذاكرا مليًّا ثم وعدهُ خيرًا

الفصل الخامس عشر

كشف العاصف

اثنان من العملة دخلا مغارة بين التنوبيات وكفرشيما ظاهرها قبر بسيط باب في الصخر الكذان الابيض عرضهُ نحو ثلاث اقدام وعلوهُ نحو اربع وقد علاهُ الطحلب وعلت السانات حولهُ حتى كادت تسدهُ من الاقحوان والتوكران وبخور مريم وابهت الدراهس داخل المغارة من كل ما كرهِ التمس ويحمد الطالع قدر مع انهما من اسرة الركس مزّار وتحره ان وهما اخوان انما ليسا بصفة اخوة حيث كان احدهما مزارعًا لاخيهما وأبا الطريد ارث من التين وهما ملكان الملك الارض عن آبائهما الماء لان قلما يجد احدهم من ملك يعمل به وكثيرًا ما يتعب الدرويش الصخر ويزرع في فتاة تينة او كرمة او توتة او زيتونة

واسمرّ وقوع المطر ساعة من الزمان فاضطرّا ان يبقيا في المغارة كل تلك المدة وصارت عيونهما ترى ما لم تكن تراه اولاً لانها اعتادت الظلام فاتسعت حدقاتها فجمعت النور لقليل المنعكس عن جدران المغارة فادتهما الى حفرة في داخلها كأنها باب مغارة أخرى فقاما ليها وجلسا يحفران فازالا التراب واذا هما بباب آخر كالباب الاول ولكنهُ مسدود بحجر كبير

فتعاونا عليهِ ونزعاهُ من مكانهِ ودخلا المغارة الثانية وهي اكبر من الاولى وكان ال
فيها الاّ حيث يدخلها قليل من النور من الباب الذي تتجاه فمشيا فيها وعبرا بها
فاقشعرَّ بدناهما ووقفا حائرين ثم اعتمدا على ان يرجعا الحجر الى مكانهِ ويعود
ومعهما شمعة . فعادا بعد الظهر ولم يكن احد يشك في انهما عائدان لورع نفسه
انقطاع المطر لان الارض ارضهما وكانا يزرعان التوت فيها ودخلا المغارة
الداخلي ثانية واثارا الشمعة فدهشا مما رأيا فيها فانهما رأيا عظام عشرين او
وبعض تلك الجثث لم يكن باليًا بل كان جافًّا مسودًّا ومع بعضها اسلحة قديمة د
وفؤوس وخوذ كأن الذين وضعوا القتلى هناك من اصدقائهم لا من اعدائهم او
تسمح لهم لسلبهم فالقوهم في المغارة باسلحتهم

فاتفق الاخوان على ان يسدا الباب الداخلي كما كان ويعودا في الليل فيأ
شيئًا فشيئًا حتى لا يشعر بهما احد فسداهُ وخرجا وكانت السماء قد صحت فعا
نصب التوت ووضعا الشمعة على حجر الى جانب باب المغارة

ومرَّ بهما الامير احمد حينئذٍ وكان قد خرج للصيد وحدهُ فوقفا للسلام ع
التفاتة الى باب المغارة لانهُ لم ينسَ غرض السرهنري بدمونت فرأى الشمعة
الحجر فسألهما عنها فارتبكا في الجواب . فوقف مشتبهًا بامرهما وطلب منهما ان
فجعل كلٌّ منهما ينظر الى اخيهِ وكانا كلاهما من حزبهِ يركنان اليهِ فلم ي
اخبارهِ بما رأيا في المغارة الداخلية فدخل معهما وازاحا الحجر واوقدا الشمعة
وقال لا بدَّ وان تكون جثة جد السرهنري بين هذه الجثث لا سيما حيث
قديمة . نعم ان الصدأ كان قد اكلها ولكن شكلها لا يزال ظاهرًا وهي من ا
التي كانت تستعمل في عهد الصليبيين

فامرهما ان يسدا المغارة ولا يخبرا احدًا ابدًا ووعدهما بمشترى كل
وعاد الى دارهِ وهو حائر في امرهِ هل يخبر السرهنري بما رأى فيكثر تردد
والتصويفات ويرى سلمى فيزيد ميلها اليهِ وحبها لهُ او يكتم الامر عن كل ا
هنري ان التفتيش عن جدهِ في تلك الجهات ضرب من العبث وعليهِ ان يفتش
اخرى . فقام في نفسهِ عاملان متنازعان عامل الشهامة وكرم الاخلاق يقول
غريب وقد التجأ اليك واستنجد بك وقد صار في طاقتك الى ترشدهُ الى ما ا
فيجب ان تلبي طلبهُ وترسل تخبرهُ بما اكتشف هذان الرجلان وجزاؤهما

. وعامل الحب والاثرة يقول لهُ هذا مناظرك في حب ابنة خالتك ويجب
عنها بكل طاقتك ولا تدع لهُ سبيلاً للتردد الى هذه الجهات فتنساهُ وتعود
. الشهامة ان كانت ابنة خالتك قد فضلت هذا الاجنبي عليك فلا خير فيها
، از تساوها وتنساها . فيقول الحب هذا اغترار بالظواهر فقد اغترَّت بهِ
، بالهِ ابدًا فاذا لم تعد تراهُ نسيتهُ ونجت من ورطة كان يمكن ان تقع فيها
نبذل كل واسطة لنجاتها منها
، طويل على هذا النمط تغلَّب عامل الحب على عامل الشهامة فصمم على ان
لى دارهِ ويخفيها فيها و يسد المغارة ويطمس معالمها . فاستدعى الرجلين
ُ بكل ما يمكنهما حملهُ من الاسلحة ثم يسدا المغارة ولا يخبرا احدًا واعطى
رة ريالات فقبَّلا يدهُ وذهبا وجعلا ينقلان الاسلحة في حالك الظلام
سيوف والخوذ واما الدروع فتركاها في مكانها وسدَّا باب المغارة جيدًا وغرسا
نع الدخول اليها
يلة جاء كتاب الى الامير احمد من الكرلوتل روز يدعوهُ فيهِ الى بيروت
لاد عمهِ عليهِ ولكنهُ خاف، من غيرتهم لانهم كانوا يغارون منهُ لمكاتبة
م وكان يود ان يتركهم في المسؤولية منهُ فوقع بين نارين ونام تلك الليلة
جمر الغضا لا يستطيع ان يخالف الوالي ولا ان يعادي القنصل ولا يريد ان
ي لئلا يسألهُ عما اذا كان قد عرف شيئًا عن المغارة او بلغهُ شيءٌ عنها لانهُ
ـاومة البحث والتنقيب وكانت الشرور قد تفاقمت وعزم الناس عزمًا اكيدًا
نة وكانوا ينتظرون انقطاع المطر واهالي الساحل يردون ان يتحولوا من
ا يحدث شيءٌ
ويفات في ذلك الحين تاب من النصارى اسمهُ كامل جريءُ الفواد قوي
رصاصهُ من يسددهُ اليهِ . اجتمع عليهِ مرة ستة وحصروهُ في مطحنة
م وثبا من يدهم وانتقر الى المتن وجعل دأبهُ ربط الطرق وشن الغارات .
يحسبون ان الفوز سيكون لهم حتمًا لانهم فازوا فوزًا مبينًا في الحركة
ري التي حدثت في الصيف الماضي. واتت الرجال من كسروان وهي بالسلاح
في بعبدا تشجيعًا لنصارى الساحل فخشي الامير احمد ان يذهب بطريق
امل هذا او باحد من اتباعهِ فيحدث ما لا تحمد عقباهُ فاختار طريق البرج

وصل الى دار الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحاً فرحب به الكولونل واجلسهُ الى جانبهِ ورحب به الامير حيدر الذي كان كولونل قبله واستدعى اثنين آخرين من مشايخ الدروز الذين كانوا في بيروت وبعد ساعة ونصف لما استقرَّ بهم المجلس وشربوا القهوة قال لهم الكولونل انكد بعضي . لقد اتى اليكم لاوامر التي صلتهُ من الاستانة فانا اؤكد لكم ان هذه الاوامر غير صحيحة وان الذين بعثوا بها اليهِ غير مسؤولين عما يفعلون او هم جهلاء لا يعرفون مصلحتهم ومصلحة بلادهم لان الحركة التي امركم بها ستعود عليكم بالوبال وتجر الشر على رؤوسكم واسمعوا مني واسبروا عقبكم يعصوا جهالكم الا فالخطب جلل

فجعل الشيخان ينظر كلٌ منهما الى الآخر اما الامير احمد فكان حامي الدم لان الوالي لم يعد يأتمنهُ فلم يطلعهُ على تلك الاوامر مع انه ارسلها الى اولاد عمهِ كما كان عليهِ ان يتظاهر بجهلها امام الشيخين واستنتج ماهيتها من كلام كولونل فقال لقد وفيتنا لسعادتكم قبلاً اننا نحن لا نكون البادئين ولكنهم اذا اخرجوا اخرجونا فوافق الشيخان على كلامهِ

ولحظ القنصل ان الامير احمد يتكلم وهو غير مرتاح للاوامر ولكنهُ لم يشأ ان يظهر ذلك امام الشيخين فقال لهم اني انذرتكم وبينت لكم وخامة العاقبة حتى اذا قامت عليكم دولة نكلترا لا يكون عليها لوم

وكان احد الشيخين كبير السن وقور المنظر فقال لهُ اسمع يا سعادة القنصل نحن نعلم ان دولة انكلترا تحبنا وتودنا وتدافع عن حقوقنا ولكن ذلك كلهُ يتوقف على رأي سفيرها في سطانبول وقنصلها في بيروت والسفراء والقناصل يتغيرون كل سنة او كل بضع سنوات واما دولتنا فلا تتغير وسياستها معنا صارمة كما لا يخفى فاذا لم نطع اوامرها وقعنا في غضب دولتكم ودولتكم اقوى منا وكما منعت ابرهيم باشا المصري عن البقاء في هذه البلاد يمكنها ان تمنع رجال دولتنا عن القاء الفتن فيها . فاذا كنتم تريدون ان ترفعوا هذه الحركة فلا اسهل عليكم من ان تأتوا بمركبين حربيين وتهددوا بهما بيروت وترسلوا فرقة من عساكرها الى التلم فيقف كل واحد عند حدهِ ولا يخفى على سعادتك ان الحركات التي تصير في لبنان اكثرها ليس منا بل من غيرنا فاذا اوصيتم كل اهالي الجبل حتى يلزموا السكينة لم يحدث فيهِ شيء . ونحن قد نزلنا الى بيروت خوفاً من القلاقل ونؤكد لسعادتك ان البلاد كلها منتظرة الشهر التالي ولا بدَّ من قومة عامة اذا كانت بقية القناصل لا توجب على النصارى ان يلزموا جانب السكون

فقال القنصل وما هي هذه الاوامر التي اطلعكم الوالي عليها

هما يصعب علينا ان نجيب سعادتك على هذا السؤال ولكن لا بدّ ما يكون
انبول قد وقف عليها كلها
لسنير عارفًا بها ولا مهتمًّا الوقوف عليها وا نحى الكولونل ان يخبرهم بذلك
الامير احمد لا يعلم بها و لتيخين لا يفتيان سرًّا اؤتمنا عليه فلم يلح عليهما لكنهُ
كلامهما ان الاوامر ذات شأن خطير كما قيل لهُ . ورجا ان يأتيهُ من يخبرهُ
كان يقول ان السياسة تقضي على المرء ان يعرف مقاصد خصمهِ بكل واسطة
رر قبل الوقوع فيهِ الّا اندُ ودّ ان يعرفها ذلك اليوم ليكتب مع البريد يخبر
: ورأى ان التيخ مصيب في طلب مركبين حربيين وعزم ان يكتب بذلك
. وقف على الاوامر السرية التي بلغهُ خبرها لعل ذلك حتمًا
المذاكرة نهض الامير احمد ونهض التيخان انهوضهِ فودعوا وركبوا خيولهم
احمد الى بيت عمهِ والشيخان الى بينهما لانهما كانا قد ستيا في بيروت تلك
ون من مشايخ الجبل على خلاف العادة . وكان لا بدّ لهم من المرور تجاه بيت
ابي نخر وكأنهُ كان جاسوسًا عليهم يرقب حركاتهم وسكناتهم فوقف في باب
، وطلب منهم ان ينزلوا و يشربوا فنجان قهوة فاعتذروا اليهِ بضيق الوقت وبقرب
لك بلجام فرس الامير احمد وقال عليّ الطلاق ان لم تنزلوا وتشربوا
ضطروا ان ينزلوا فادخلهم بيتهُ واجلسهم حيث اجلس الامير ونادى بالقهوة
ليهم ما سمعهُ من الوالي من المدح والثناء على الامير احمد وذكائهِ قال وقلت
ير احمد ابن اميهِ وابوهُ كان صديقي والصداقة قديمة بيننا انتم الآن آتون من
نكليز لا بأس فان الانكليز اصدقاء لدولتنا العلية هم والفرنسوي حالفوها على
وكم يُرَى لي ان السياسة انقلبت اليوم وان افندينا الوالي ما عاد يركن الى
. لم يقل لي ذلك صريحًا ولكنني فهمت منهُ . انا القطها طائرة . ونحن ما لنا
الافرنج ما دام دولتنا في الوجود . ما هو رأي القنصل قل لي يا امير احمد
تستحليني كما كان يستخلصني المرحوم والدك
ير احمد ليس الامر كذلك يا ابا نخر ولكنك انت عارف بكل شيء والذي
تستنتجهُ بذكاء عقلك
و نخر وقال هكذا كان المرحوم ابوك يقول عني نحن احباب من زمان طويل
، معرفة مباركة ان شاء الله تفضلوا خذوا القهوة . هذا بن حجازي يأتيني

هديّة كل سنة لا متيل له في كل بيروت ولا في الشام وهي حرية اشتريتها من جواري اسعد باشا كانت محبوبة عمر التهوة ولا [illegible] حتب ولا ندفة في هذه [illegible] اطيب من عيرها شربتها في [illegible] هناك من قبل الوالي لبعض لاتعلل وكنت اشرب من [illegible] الجارية التي عندي . مدا تقول يا حضرة الشيخ هل قد شربت قهوة طيبة من هذه القهوة والفناجين والظروف الامير احمد يعرف قيمتها [illegible] هذه القهوة ولما رأى الفناجين اتبع هذا الكلام لآن يقول ما شربت من القهوة التي شربها في بيت الشيخ درويش

فقال احد الشيخين نعم القهوة كما وصفت يا سعادة الشيخ وكلنا مسرورون من هذه المعرفة الجديدة والفضل فيها لسعادة الامير وصدق الشيخ الآخر في كلامه وجلسوا وبعد قليل والتي تمكنوا من وداعه وركبوا وساروا في طريقهم والامير احمد يقول لا بد ما نعد طريقا آخر نمر به بعد الآن حتى نخلص من هذا التقيل

وسار الامير احمد الى بيت عمه والشيخان الى بيتهما واتفقوا على ان يجتمعوا في مساء في خلوة رأس بيروت ويتداولوا في ما يجب عليهم عمله في لامال [illegible]

الفصل السادس عشر

استحمال الحطب

ارى خلل الرماد وميض جمرٍ ... ويوشك ان يكون له ضرامُ
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب اولها الكلامُ

وما الحرب الاّ ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتضرَ اذا ضرّيتموها فتضرمِ
فتعركُكم عرْك الرحى بثفالها ... وتلقحْ كشافاً ثم تحملْ فتئمِ
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم ... كأحمرَ عادٍ ثم ترضع فتفطمِ
فتغللْ لكم ما لا تغلُّ لاهلها ... قرًى بالعراق من قفيزٍ ودرهمِ

ليقلْ محبو السلام ما شاؤوا في مذامّ الحرب وليطنب كتّابهم في وصف وبا [illegible] ما دام

في الدنيا اناس يتجرون بالحروب ويكتسبون بها اسماً وجاهاً او مالاً ومقاماً فهم يوقدون نارها ويدكون اوارها فهي آلة الملوك والوزراء والقواد والرؤساء والمرابين والمورّدين وصانعي الاسلحة والمهمات وكل المرتزقين من مال عيوبهم . فما دام هؤلاء يجدون فيها معمماً فلن تطفأ نارها

وشر الحروب الحرب الاهلية وشر الناس موقدو سعيرها ولا سيما اذا لم يكن للمتحاربين مصلحة فيها

مضى الشتاء وحل الربيع فانتعشت الطبيعة ولبست ابهى حللها وحلاها تفجرت الينابيع واكتست الرياض والغياض اتواناً سندسيّة طرزة بالوشي المعلم واضحت الادواح تحت حملها من تفاح فصي ومشمش عسجدي والطيور تتغنى في اغصانها وعبق اريج الازهار يعطر الآفاق ويسلي النفوس عن انتجاعها . اسحر الله الطبيعة من نبات وحيوان حذلة طرية الا ابن آدم انتظر انقطاع الامطار لكي يبدلها بوابل من رصاص بنادقه يخطف بها النفوس من الابدان قضاء للبابات افراد معدودين

وصلت الاخبار الى الكولونل روز ان الزريبة وقعت والنار اشتعلت وقد طرح الصوت وأطلق المدفع وانفضّ رجال كسروان من الساحل اطاعة لامر الوالي والمطران وعادوا ادراجهم واجتمع الدروز حول مشايخهم وهجموا على قرى المتن فالقاهم النصارى حائري العزائم لان الجنود في الحارمية وراءهم وقد حاولوا ان يقعوا بين ناربن لا سيما وانهُ كان قد شاع وذاع ان في يد الوالي اوامر سرّية باستئصال شأفتهم

وصعد السرهنري بدموت الى سطح القصلية والمطارة في يده ترى كأنّ ربى لبنان استحالت الى براكين كثيرة تقذف الدخان والنيران من افواهها وتقام اماؤهُ زرافات زرافات متاة ورساناً وقد نشروا الاعلام واشتروا حول القرى يهاجم بعضهم بعضاً ويتراموں رصاص البنادق من وراء المتاريس ثم يستلون السيوف ويبارزون الخوف الى ان يتغلب فريق على فريق فيذبحهُ ويصرعهُ ، اقفيته ثم يضرم النار في مساكنهِ والتفت الى كمرشيا تحت دار الاميرة سلمى فرأى الدخان مسرداً فوقها فوقعت المطارة من يده وجلس على كرسيّ وسند رأسهُ وقد مرّ في ذهنهِ صور الحروب القديمة التي كانت تنشب في تلك البلاد وتنتهي بحرق البيوت وسبي النساء والذراري فقال في نفسهِ ترى ما حلّ بتلك الاميرة واي فارس اردفها وراءهُ الآن وهي تنادي وتستغيث ولا سامع ولا مغيث هل يفعل ما كان يفعلهُ الفرسان في القرون الوسطى فيتقلد سلاحهُ ويركب جوادهُ ويثور لانقاذها يهجم على الفارس الذي خطفها ويطعنهُ طعنة تكون القاضية . ولكن اتى لهُ ذلك الآن وهو غريب في بلاد غريبة وقد

ي الامر وكادت جموع [illegible] والعمل جنة في
غرتيبا الى ان هجم الاعداء [illegible] العمر وقاوم
اعداء فدارت [illegible]

وكان الكولونال روز مصابًا [illegible] واجبره
رأى فتململ في سريره وتحفز للقيام وكان [illegible] عن عزمه فسل دلوا
تهم اتوا بالرجال من كسروان [illegible] العهود [illegible] الحزبية
كين الحواضر وهم يعلمون مع من [illegible] معارفون بمواعيد
يعلمون ان الدائرة ستدور عليهم حين [illegible] الصحوا
ثم عاودته نوبة السعال فعجز عن الكلام . وحسب الترجمان حينئذٍ [illegible] ان
ارين من قرى الساحل قد وصلوا الى بيروت وهم [illegible] ولاد مع
ض العجائز ولا طعام لهم ولا شراب ولا يعلمون [illegible] فريق منهم الى دار
لران الموارنة وفريق الى دار بطركية الروم والمتسركيتيون منهم [illegible] في
صيطبة وبير النبع ولا بدّ لنا من مساعدتهم بما يفرج كربهم [illegible] كما لا يخفى الوالي
مة كل ما يحدث في المدينة فلا امان عليهم ولا عيش . كيف حال القنصل الآن

السرهنري — القنصل على حاله وانت تدري مبلغ [illegible] عليها ب
ذه الحال فاخبرني بما ترئيه وانا استشير القنصل بهذه [illegible] مع السرهنري

الترجمان — لم ارَ الاَّ قليلين منهم واليائسون لا يبرحون [illegible] عن
ريمهم ولابدّ ان يبلغ عدد القتلى والجرحى مبلغًا كبيرًا لان [illegible] والناس لا يدرون
تمام الحروب

وودّ السرهنري ان يذهب ويخالط جموع الفارين ينتشل عن [illegible] ولكنه
كان يجهل كل طرق الاستدلال عليها وخاف ان يسأل الترجمان [illegible] من يكون
نكرًا ويرى العيون رقيبة عليه . ثم لام نفسه لانه فكّر بامر خاص وقت يجب عليه ان لا يهتم
لاَّ بالامر العام وبالبليّة الكبرى التي تشمل الوفًا مثل الاميرة سلمى وقد تكون هي اسعد حالاً
نهم كلهم فجلس مشرّد الافكار ينظر الى السقف مرةً والى الارض اخرى

وسار الترجمان الى الدار التي يجتمع فيها المرسلون الاميركيون ليستشيرهم في الامر
هو عازم ان يذهب بعد ذلك ويرى قنصل فرنسا وقنصل روسيا ثم يعود ويخبر السرهنري
با وقف عليه

الفصل السابع عشر

واقعة الساحل

لما كان السرهنري واقفاً على سطح القصلية يرى الدخان يتصاعد عن سفح لبنان من قراهُ المنتشرة كالحبب على وجه الماء او كالدراري في كبد السماء كان رجال الساحل قد احيوا الليل بالاستعداد لمقابلة الاعداء واقسموا فريقين فريقاً تولّى حماية النساء والاولاد والدهاب بهم الى مدينة بيروت مع ما خفّ حملهُ وعلا ثمنهُ من الاستعة وفريقاً تسلّح وودّع اهلهُ واقاربهُ وداعاً قد لا يعقبهُ لقاء . فكنت ترى هنا طفلاً متعلّقاً بثياب ابيهِ وهو يقول لهُ كيف تتركنا يا ابتِ ومن يبقى مع امي واخواتي وابوهُ يرفعهُ بيديهِ ويقبلهُ ثم يسلمهُ الى أُمهِ ويوصيها بهِ . وهناك امرأة تربط زنار الفشك (الخرطوش) على وسط زوجها وتناولهُ بندقيتهُ ويطقانهُ وهي تنظر الى وجههِ تارةً والى اطفالها اخرى وترفع قلبها الى الله وقد يسيهِ ليردوا لها زوجها سالماً . وهنالك رجلاً يودّع ابن عمهِ ويقول لهُ أُودعك يا اخي المرأة والاولاد فيجيبهُ ذاك بامان الله كن مستريح البال فهم مثل اولادي واعز . واكثر الاولاد نيام يوقظهم امهاتهم فيفركون عيونهم ثم ينامون . والنساء الجبارات يحملن جرار الماء ليجرين وراء الرجال . والجمال باركة تهدر والناس يحملون عليها امتعتهم وهم يتآمرون في ما يجب اخذهُ وما يجب تركهُ . والمكارون يسبُّون ويشتمون وقد علت الجلبة واختلط الحابل بالنابل ووقف العجائز بعضهنّ يشير بما يجب عملهُ وبعضهنّ يضرع الى السيدة ومار الياس ومار انطونيوس وكانت ليلة صفا اديمها واغنت دراريها عن بدرها فامرقت تقابل بين توحش الناس وانس الوحوش

ولما طلع الفجر ركب الامراء وهم بالعدة الكاملة مع كل واحد منهم سيف وقربينة وطبنجان ومشى الرجال معهم ومع كلٍّ منهم بندقية ويعقدن او بالة وطبنجان او فردان . وسار حملة البارق في مقدمة الجمع وهم ينشدون الاناشيد الحماسية ومشوا قرنًا فرقًا الى ظهور الوادي وعبروا وتراسوا هناك واشرقت الشمس حينئذٍ وسبت اشعتها عليهم فكادت تعمي ابصارهم وقبل ان ينهوا اقامة المتاريس اقبل الدروز عليهم برايتهم البيضاء وامامهم اراً حامية ومرّت ساعتان والحرب سجال بين الفريقين لكن الدروز كانوا اكثر عدداً واسلم انتظاماً واطوع لقوادهم فاقام فريق منهم يناوش النصارى ودار فريق من ورائهم وكاد يقطع خط الرجعة عليهم ويئس النصارى من الفوز فجعلوا يرتدون القهقرى وكلما وصلوا الى مكان تسهل المترسة فيهِ وقفوا واطلقوا بنادقهم على اعدائهم حتى اذا لم يستطيعوا قهرهم

ن بلوغ قرامم الى ان تخرج عيالهم منها وتصل الى بيروت
ـ الحديث التالي بين اثنين من الدروز
د — من هذا الخيّال الذي يخفّي رجالهُ والسيف مسلول بيدهِ
د — اتعني راكب الحصان الازرق او راكب الحصان الاشقر
د — راكب الحصان الازرق فاني اراهُ لا يخاف الموت
د — هذا الامير عبدالله وهذا حصانهُ الابجر وهو مثل الابجر حصان عنتر بن شداد
لهُ بين خيول الشهابيين
د — ان بندقيتك نظامية فلماذا لا تطلقها عليهِ
د — نيشنت عليهِ مرتين وانا ارمي العصفور الطائر ولكني لم اصبهُ لان المجال بعيد
ن لا يصل اليهِ
د — لماذا لا يهجم عليهِ الشيخ حمدان وما هو نفع كحيلان ان كان لا يلحق الابجر
د — اخ
د — مالك قم نتبعهم فقد قاموا من امامنا
د — الكاتبه ربك يصير سلّم على ام قاسم وقل لها ربي ابنك حتى يأخذ بتار ابيهِ —
يا سيد عبدالله — وارتمى على السعيد فجرهُ حامد الى وراء صخر ودنا من الشيخ حمدان
ان راكب الحصان الازرق هو الامير عبد الله عقيد النصارى . فقال لهُ ومن اين
. فقال من حصانهِ . فلما سمع الشيخ حمدان ذلك اغمد سيفهُ وصلى قربينتهُ واغار على
عبد الله وهو يقول في نفسهِ كسرنا القوم وقتلنا عميدهم حتى اذا دنا من الامير قال لهُ
ولا تقل اني غدرتك واطلق القربينة عليهِ وكان الامير عبد الله قد تنحّى من وجههِ فلم
شيءٌ من حوّاشيها ثم ارتدّ اليهِ والسيف في يدهِ واطبق عليهِ وكاد يوقع بهِ ولكن
ربعة من اتباعهِ وهجموا عليهِ ببالاتهم فارتدّ عنهُ وهو يقول لهُ ان كنت راعي كحيلان
اليّ وحدك فارسًا لفارس
وكان بعض الدروز قد داروا من وراء النصارى واضرموا النار في بيوت الوادي وبعبدا
ه والتفت النصارى فرأوا الدخان يتصاعد من بيوتهم فايقنوا ان الجنود المعسكرة في
بية لن تدفع عنهم مكروهًا خلافًا لمواعيد الوالي ان لم تكن عمالئة لعدوهم عليهم فارتدوا
مض الدور وتحصنوا فيها
والتفت ميخائيل الى منصور وقال لهُ لقد دخل الامير دارهُ وتحصن فيها ويظهر لي اننا

مدر علينا النجاة بعد ذلك قال لنا ولسنة الاشـ
وحده في سنده الساعة لئلا اننا لم نذهب من سـ

ا حميت الحديدة تركك و ربـ
لامهِ اني لا اتركهُ

تأتي ورقته يذهب غضباً عن رقبته. في رأسك.
لفة البيضاء خذها يا ملعون. وسدّد اليهِ بندقيتهُ
جاً من باب دارهِ ومعهُ صندوق صغير فتناولهُ

، النصارى ان الدروز تكاثروا عليهم وكادوا
ار وتبعهم الدروز الى قرب الشياح وقتلوا منهم
اسم الملقب بابي طحين
بعد شروق الشمس بساعة او ساعتين وتفرقت في
ن ست سنوات فصاعداً ان يسيروا هذه المسافة
وا معهم لحمايتهم لقيهم الخفر عند مرور الشباك
بامر والي بيروت لم يعودوا يستطيعون الرجوع

الثا ن عشر

ن الاميرة سلمى
اصل واجتمع بالسرهنري وتذاكرا مع القنصل
ن احوال النصارى الذين وصلوا الى بيروت ذلك
، الذين اصلوا نار الحرب ووشوا الدروز الى ان
جهم قد وصلوا الى بيروت وجعلوا يفتشون عن
ابنها او اخاها لم يعدّ مع الذين عادوا توقن
لمس تصرب صدرها وتصوح رحا يفتت الاكباد

واجتمع كثيرات من النساء زرافات زرافات وقد اسدلن الشعور وجعلن يلطمن بالمناديل ويندبن ويبكين وسمع اولادهم صوت البكاء والنواح فعلا بكاؤهم وعويلهم وقام الرجال ينتهرونهم لكي يسكتوا او يتاركونهم في البحث واجتمع عليهم نساء بيروت واولادها ياتونهم بالخبز والماء ويرثون لبلواهم وكان لاكابر الدار اصدقاء واقارب نزلوا عليهم فوسّع هؤلاء لهم في منازلهم واحلّوهم على الرحب والسعة

وسار السر هنري والترجمان من محلّة الى اخرى يرون الرجال ويستقصون الاخبار والسر هنري يكتب في مذكرته كل ما يراهُ ويسمعهُ وكان يعلم اسم الاميرة سلمى ويعلم انها شهابية ولكنهُ نسي اسم ابيها ولم يكن يدري كيف يسأل عنها فقضى من العصر الى قرب الغروب ينتقل من محلة الى أخرى ومن حي الى آخر فلم تقع عينهُ عليها ولا على امها ولا على ابيها فزاد انشغال بالهِ وكاد يبوح بما في نفسهِ للترجمان لعلهُ يساعدهُ على التفتيش عنها . وبينما هو في حيرة ولا حيرة الضب حانت منهُ التفاتة فرأى القزم الذي رآهُ في كفرشيما لما التقى بالاميرة سلمى وامها على عين الماء بين كفرشيما والتويفات ورآهُ القزم فعرفهُ وجعل يناديهِ قائلاً يا خواجه يا قنصل فهش لهُ السر هنري واخذ بيدهِ وكادت الدموع تهطل من عينيهِ لمَّا قابل الحالة التي رآهُ فيها اولاً وهو يكاد يكون في مجالس انس الملوك والحالة الحاضرة والناس مرتمون على الارض كالانعام واطفالهم يبكون ويتخاطفون كسر الخبز وكأنهُ كان يرى الف رقيب عليهِ فطلب من الترجمان ان يقول للقزم ليأتي معهُ الى دار القنصلية ويقص عليهِ ما حدث لهم . فقال لهُ الترجمان ان القنصل يدعوك للذهاب معهُ الى دار القنصلية فقال حبًّا وكرامة . وكان القواسة قد احضروا لهُ فرساً وللترجمان فرساً آخر فركبا وعادا الى دار القنصلية وعاد القواسة بالقزم اليها

وجعل الترجمان يسألهُ عن الامراء واحداً واحداً الى ان وصل الى اسم الامير عباس فقال ان الامير عباساً تخاصم مع الوالي فان الوالي طلب منهُ ان يوافق الدروز ويكون معهم لانهُ مسلم فرفض ذلك وذهب بزوجتهِ واولادهِ الى ابناء عمهِ امراء حاصبيا منذ اربعة ايام . ثم التفت الى السر هنري وقال لهُ والاميرة سلمى معهم . ففهم السر هنري اسم سلمى واستفهم من الترجمان عما قال فترجمهُ لهُ فاظلم الضياء في عينيهِ ولم ينتبه الترجمان لذلك ولكن القزم انتبه لهُ وقال اني رأيت الاميرة سلمى يوم ارتحلوا وكانت تشير على ابيها ان ينزلوا الى بيروت وتؤكد لهُ ان قنصل الانكليز يحميهم وهو مصرٌّ على الذهاب الى حاصبيا ووادي التيم ولما فرغت حيلتها جعلت تبكي وتتوسّل الى امها لكي تقنع اباها بالنزول الى

بيروت او بالذهاب الى الشويفات الى بيت خالتها لان الامير احمد ارسل يدعوهم اليهِ ولكن الامير عباساً رجل عنيد لا يسمع رأي احد

ثم قال القزم للترجمان قل للقنصل ان الاميرة سلمى تحبهُ وكانت تريد ان تنزل الى بيروت لاجلهِ. فأبى الترجمان ان يترجم هذا الكلام للسر هنري لكن السر هنري طلب منهُ ان يترجمهُ لهُ فترجمهُ لهُ فتضاحك وقال قل لهُ من اين عرفت ذلك . فقال اجهُ ان العصفورة اخبرتني وانا وان كنت صغير الجسم لكن عمري اربعون سنة وانا أُضحك الناس واضحك عليهم لاني اعرف ضمائرهم واقرأ افكارهم في وجوههم وحركاتهم فاننا لما كنا على النجمة ورأيتهُ واقفاً امامها قرأت في عينيها وعينيهِ رسائل الحب بينهما . وقل لهُ ان الاميرة سلمى في حاصبيا الآن ولا امان عليها هناك لان امراء حاصبيا مع النصارى ولا بدَّ ما تدور الدائرة عليهم وليس لهم هناك مدينة يلجأون اليها مثل بيروت فان كان يحبها حقيقة فليبذل جهدهُ في انقاذها. ثم نظر الى السر هنري وجعل يكلمهُ بالاشارات ففهم السر هنري بعض مرادهِ وزاد اشتغال بالهِ وقال في نفسهِ ان هذا الرجل المشوَّه الخلقة اذكى فؤاداً من اكثر الذين رأيتهم في حياتي فطاب خاطرهُ واخرج من جيبهِ قبضة من النقود الفضية واعطاهُ اياها وعرض عليهِ ان يبقى في القنصلية وينام مع الخدَم اذا اراد فقبل ذلك شاكراً وصار دأبهُ التردُّد على المازحين الى بيروت والمجيء باخبارهم فكان من افضل المخبرين واذكاهم فؤاداً واكثرهم تدقيقاً واصوبهم رأياً

وكان السر هنري يسمع ما يأتي بهِ من الاخبار وهو يفكّر في الاميرة سلمى وما يحتمل ان يصيبها في حاصبيا اذا وقع بها ما يخشى وقوعهُ او اذا لجأ بها ابوها الى عرب البادية فتاهوا في القفار وغزا بعضهم بعضاً وأُخذت سبية وقد يراها امير من امرائهم فيتزوج بها رغماً عنها. وراجع ما كتبهُ قنصل صيداء عمَّا بلغهُ من اخبار حاصبيا فوجد ان الفتنة ابتدأت فيها ولا امان على الامراء الشهابيين الذين هناك ولو كانوا مسلمين ولكن الحول والطول في تلك الجهات للست نائفة اخت الشيخ سعيد جنبلاط فعزم ان يكتب اليها لكي تحمي الامير عبَّاساً وعائلتهُ ولكنهُ عاد وتذكر ما قالهُ لهُ القزم وهو ان الامير عبَّاساً عنيد ولا يرضى ان يحتمي باحد من الدروز فرأى ان لا فائدة من الكتابة

ولا اشد على المرء من ان يرى نفسهُ مغلول اليدين لدى امر يسهل عليهِ عملهُ ولكن لا سبيل لهُ اليهِ . فلو جاء الامير عباس الى بيروت لكانت حمايتهُ وحماية كل الذين يلوذون بهِ من اسهل الامور على السر هنري ولو كان الوالي ضدهُ ولكنهُ احسَّ الذهاب الى مكان

داخلية البلاد دون الوصول اليه حرصاً عليه

وكانت هذه الافكار تتردد في [illegible] وشاء [illegible] كولويل ضطرابهُ فظن [illegible] هذهُ [illegible] من [illegible] يسأله [illegible] ثم استطرد الحديث الى احوال اللاجئين [illegible] فكان [illegible] كلامهُ مجملاً دل لى انهُ كان مشغول البال بامر آخر

الفصل التاسع عشر

الدر ولا العار

ومَن يحشى اطراف الرماح وسد ... لبسنَ لهنَّ الساغبات من الصبرِ
وان كريهَ الموت حلوٌ مذاقهُ ... اذا ما مرجاهُ بطيب من الذكرِ
وما رزق الانسان مثل منية ... اراحت من الدنيا وما تحرز في القبرِ

ألا ربما كان التصبر ذلة ... وادنى الى الحال التي هي اسمحُ
وقد يركب الخطب الذي هو قاتلٌ ... اذا لم يكن لا بدَّ منهُ معرّجُ

لا اثقل على نفس الحر من الصنيعة يسديها اليهِ مَن ليس اهلها . ولا من الانقياد لرأي ترى من نفسك بطلانهُ . هكذا كان شأن الامير عباس حينما دعت اليهِ الامير احمد يدعوهُ الى الشويفات ليقيم في حماهُ فانهُ لما اخبرتهُ زوجتهُ الاميرة هند بكلام الرسول هزَّ رأسهُ وقال الله الله صار ابن شهاب يحشي بابن ارسلان لا وتربة احدادي ثم نادى بغلمانهِ وقال استعدوا للسفر فاننا ذاهبون الى حاصبيا . وقال لزوجتهِ لا يمكنني الذهاب الى الشويفات والالتجاء الى بيت ارسلان ولا النزول الى بيروت لان الوالي على ما تعلمين وقد سفَّهت رأيهُ وحذَّرتهُ عواقبهُ فحقد عليَّ . ولا البقاء هنا لانهُ لا بدَّ للدروز من مهاجمة الساحل ولا يستطيع النصارى ان يثبتوا في وجههم بعد ان كفل الوالي لهم الفوز فقولي للاولاد ان يكونوا على استعداد فنذهب الى اولاد عمنا في حاصبيا ووادي التيم فانهم بعثوا يلحون علينا بالذهاب اليهم وربما ذهبنا من هناك ونزلنا على عرب الفضل فان الامير عمر الفاعور ارسل اليَّ مرتين لنذهب اليهِ ونحن باختيارنا منازل البدو على غيرهم نكون قد عدنا الى اصلنا او كما يقول المثل اكلنا الغول وعدنا الى الاصول

وكان الشهابيون في كفر شيما والحدث وبعبدا مرتابين في امرهم هل ينتصر الدروز او

كلموهُ في هذا الموضوع وهو كان يعلم ان الحرب الاهلية تأول الى
كن ولاة الدولة من ادلالهم وكان يسفّه رأي القائلين بها
بينهُ وبين والي بيروت الى المغاضبة لكنهُ طلع بسواد الوجه مع
ـ ولا هو ارضى النصارى وارباب كلاهما في احلاصهِ . واقام
طوب وكلما حانت لهُ فرصة وبّخ القائمين بهذه الفتنة وسفّه رأيهم
ذا مقام حتى مطران الموارنة صديقهُ الحميم اغناظ منهُ وكفّ
الوالي يرى وخامة العاقبة فيأمر الفريقين بالتزام جانب السكينة
دى عليهِ الى ان جاء الرسول من عند الامير احمد يطلب منهُ
ا . وكان يعلم ان الامير احمد رجل جدّ لا يقول الّا ما يعني
ن لهُ حينئذٍ ان الشرّ واقع لا محالة وان الدروز واثقون بالفوز
هذه الثقة الّا وقد اكّد لهم الوالي انهُ ينصرهم بالجنود وترجّح لهُ
صدقهُ وهو ان الوالي اشترى رؤساء الدروز بالاموال الطائلة
ـّا ولما رآهم ممتنعين عن اجابة طلبهِ برأي بعض عقالهم حذّرهم
ال التي عرضتها عليكم اعطيها لخصومكم واساعدهم عليكم ان انتم
غرضهُ كان اثارة الفتنة على كل حال عملاً بمشورة الحزب الباقم
د عمل بعض الدروز برأيهِ مكرهين لانهم رأوا انفسهم بين
وما هذه اول مرة استحلّ فيها رجال السياسة اثارة الحروب
سية

ـر لقد قضي الامر واتفق الدروز مع الوالي ووافقهم الامير
بجرّ عليهِ البلاء . فقوي الميل في نفسهِ الى نصرة ابناء عمهِ لانهُ
ابناء عمهِ في لبنان لا يأتمنونهُ فقال لا بدّ من الرحيل الى حاصبيا
لى انّ سلام منلهُ رهم من حرب النصارى
مير عباسًا عازم على الارتحال الى حاصبيا فلم يعبأ اهلها بارتحالهِ
، حرب ينتهي وكانوا يحسبون ان الفوز سيكون لهم اذا انقدت
ن كانوا في بعبدا وهم ابطال مشهود لهم والدروز يحتسبون بأسهم

سلمى ابا اباها يفضل الذهاب الى حاصبيا على البقاء في كفرشيما

To: www.al-mostafa.com

اوا بيروت . وكانت تبيع حوائج [illegible] يستعدون لحرب اهلية وكثيرًا ما سمعت [illegible] يتكلم عن [illegible] حركة [illegible] مستعود عليهم بالصعف غالبين كانوا او مغلوبين مستشهد بحروب لاهيه [illegible] وحسبت كل حساب لانحساب بدات او حدد . لانتعدس [illegible] . فلما جاءتها امها تقول لها ان [illegible] حصن . وودى الامير صورت الى امها انظر المستقبل المرتب وذلت حسب [illegible] فتمت وكانت [illegible] في كتابه كتاب الى ابنة عمها الاميرة [illegible] يدعوها لذهب الى داره فرفض ابوك ذلك وما [illegible] دعوة . فقالت لها اذا قال ابي قولا لا يرجع عنهُ وانت تعلمين صبغة [illegible] لا التسليم لارادته

قالت ذلك لانها رأت اضطراب امها وزادت ان حسن [illegible] اما في فكانت كارهة لهذا السفر نافرة منهُ اشد النفور ثم مضت الى غرفة [illegible] وكتبت على انفراد مسيئة بها ان فصل الانكليز يحميهم اذا رحلوا الى بيروت . وما قال هذا من بين تعيين ذلك ستصغي يدها ولكن بداهتها كانت قوية فقالت لهُ اني اشعر بهذا الامر من نفسي وقد سمعت احمد يقول غير مرة ان فصل الانكليز مضاد للوالي فاذا عرف [illegible] بينك وبين الوالي ولا بد من ان يحميك منهُ

فقال ابوها هذا قد يكون وقد لا يكون والمسألة مسألة حياة وموت وعز وشماتة فلا القي بيدي الى التهلكة وكانت تعلم انهُ اذا قال كلمة لا يعود عنها فركنت . ورجعت الى المكتاب الذي كانت تكتبهُ لابنة عمها وهي تقول في نفسها بعد [illegible] احكامي ووطدت وزهت مثلها فخلصت من كل هذه الهموم وتجلت امام عينيها حينئذٍ صورة الدير هذي لدموت وكانت قد مضت ايام كثيرة لم تره فيها ولا سمعت عنهُ شيئًا ولا سمعت اسمهُ بلسان احد فجالت الدموع في عينيها وهي تقول ما اشق المرأة تحب فتضطر الى الكتمان وتميت قلبها وعواطفها لكي تحافظ على عادات قومها . ولقد طالما علمت نفسي بانني اسلوهُ فمضت الايام وانا لا ازيد الا شوقًا اليهِ فاذا يصيبني اذا ابعدت عنهُ ولم يبقَ لي امل ان اراهُ ورأها القزم وهي على تلك الحال ورأى آثار الدموع في عينيها فلم يجسر عليه امرها

ومضى النهار وهي سكرى لا تدري ماذا تفعل وكان الخدم يهيئون ما يلزم اخذهُ من الامتعة ونهضوا في الصباح وركب الامير عباس وزوجتهُ واولادهُ حيولهم وحملوا الامتعة على ستة بغال ركب عليها بعض الخدم ايضًا وام يوسف معهم اخذتها معها الاميرة هند لتسليتهم حتى اذا بلغوا نهر الدامور وجدوا الماء فيهِ غزيرًا الى بطون الدواب وكاد يحمل

لجواري واضطر الامير عباس ان يعود اليهن ويتمددهن هند والاميرة سلمى مكانتا معتادتين ركوب الخيل فخاض جسا شرًّا . وتعدوا في البي يوس ووصلوا صيداء بعيد هو من اصدقاء الامير عباس ومن اهل التقى وقاموا منها رها عند الغروب وخرج الامراء التنهابيون للقائهم ومعهم م وانزلوهم على الرحب والسعة . واست الاميرة سلمى بن ما وان بعضهن كن متعلمات في المدارس الانكليزية امرة . ورأت عندهم كثيرًا من كتب الادب فاخذت ر منها في الشتاء الماضي مما شغل بالها ولا يرجى تحققهُ في قر بهم المقام حتى وردت الاخبار ان الدروز هاجموا كثيرين من سكانهِ فعلا البكاء والنواح في دار الحدم ند بزوجها وتطلب منها ان ترجعها الى كفرشيما وهي تقول اقل عقلي . وقلق الامراء لانهم رأوا ان الفتنة اوقطت كلها

الفصل العشرون

شكوى الحب

التقرير الذي شرع في كتابتهِ للسفير واوسل صورتهُ الى . . ثم دخل غرفتهُ واخذ قلمًا وقرطاسًا وجعل يكتب لامهِ دنيهِ ولا سيما قولهُ ان الاميره سلمى حبيبةٌ كما يحبها فاخذ . قرى لسان وما رآهُ من احوال سكانهِ القاربـ منهُ وما وم ومما قالهُ لها مهما اطنبت في جمال هذه البلاد لا اوفيها لمدا في اجمل فصول السنة ورأيت بحيرانها وحداولها را في فصل الصيف واقمت فيها نحو شهرين ولكني لم ارَ في فصل الربيع . والناس هنا اهل جد ونشاط الرجال والنساء يعزلن ويحكن وكلهم يربون دود القز ويستخرجون

هذا الحرير وامراؤهم ليسوا على ثروة [illegible] ولا تعرف شيئاً مثل قصورنا ولكنهم متمتعون بشيء من بهجة السيادة والاستقلال وعندهم جميع ما يحتاج اليه من العبيد والحواري والخيل والبغال ويركب الامير منهم موكبه حوله [illegible] كالملوك ويتجولون في البلاد غنية على ما فيها من سوء الادارة ولكن مهما [illegible] في قوي سوء الادارة فلا تفهمين مرادي لانك لا تستطيعين ان تتصوري ان حكومة تتسع شعبها قسمين وتحرض القسم الواحد على الآخر لكي يفتك به ويخرب ديارهُ . هذا هو الامر وقع الآن وقد بذل الكولون جهدهُ لكي يمنعهُ فما استطاع لان المغربين بالشر اقوى منا . ومما يسوءني ذكرهُ ان جيوشاً عبر البحر مساعدون على هذا التحريض كي يحدثوا البلاد . وقد ذهبت صباحاً مدى وكان اليوم يوماً مشهوداً رأيت فيهِ الدخان صاعداً من معامل السكر الى عنان السماء وتلاحمت بالمطارة البحرية التي عندنا جماهير الاهالي باثوابهم البيضاء والزرقاء واعلامهم الحمر والبيضاء ومعهم قليلون من الفرسان وهم امراؤهم ومشايخهم يجتمعون ويتشاورون ويتراصون بالرصاص ويتضاربون بالسيوف ثم يهجم بعضهم على بعض وينذحر بعضهم من امام بعض وحسود حكومة معسكرة في الطريق تصدُّ الفارين عن الفرار وضلعها مع احد الفريقين على الآخر وهي لو ارادت لاطفأت هذه الحرب بكلمة يقولها قائدها او مدفع يرميهِ المعتدين

ونزلت بعد الظهر الى شوارع المدينة واحيائها فرأيت ما تشتت لهُ الاكباد رأيت النساء جالسات تحت اشجار التوت او في عرصات البيوت يندبن ويحنن ويولولن يبكون طالبين ما يسد الرمق . ورأيت بعض الرجال واقفين حيارى لا يدرون ما يفعلون ولا كيف يحمون عيالهم وعيال الذين قتلوا من اخوانهم وقد نهبت امتعتهم وحرقت منازلهم . ورأيت امرأة بديعة الجمال ومعها ولدان كأنهما بدران وهي تندب ندباً يبكي الترجمان مترجم لي كلامها فاذا هي تقول " انها ذهبت الى القبر تطالبهُ بحبيبها واجابها ان حبيبها ملقى على الطريق تأكلهُ طيور السماء وتنهشهُ وحوش البرية "

نحن باذلون جهدنا الآن لنجمع من المال ما يخفف بعض الكرب عن هؤلاء المساكين ولو بتقديم الخبز لهم . فابذلي جهدك لتجمعي لنا ما يمكن جمعهُ من احسان المحسنين وقولي لاقلين ان هذا يومها فارسلوا لنا نقوداً وثياباً ان امكن والنقود احسن لان ارسالها اسهل بتحاويل على الصيارفة ولا بدَّ ما تزيد الحاجة لانهُ يبلغنا ان الاوامر صدرت بقتل كثيرين في انحاء سورية او حيثما يمكن الايقاع بهم ويصعب علينا ان نصدق هذا الخبر لغرابتهِ ولكن ما حدث اليوم يدل على صحتهِ وسنرى ما تفعلهُ حكومتنا في هذه الحال

ق عن الاميرة سلمى التي رأيتها في بلدة قرب بيروت وقد
دار ابيها ثم بلغني ان اباها ارتحل بها الى بلدة تبعد نحو يومين
مأمن هناك ولا اخفي عليك يا اماهُ ان لهذه الفتاة في نفسي
لم اسرَّ اقلين وحبهالي ولكنني كنت اشعر دائمًا انها لا تنظر
نها نسيتني الآن او انها كانت تحبني محبة الصداقة او محبة الاقرباء
ة لم تكلمني كلمة تدلُّ على الحب ولا انا ذاكرتها في هذا الموضوع
ك كنت اشعر من قلبي اني وقعت في نفسها كما وقعت في نفسي
على التصوُّر لا غير الى اليوم فسمعت اليوم ما حقق لي ظني
لهرج الذي رأيتهُ في دارهم فاخبرني بامور وفي جملتها انهُ عارف
ي وان ابن خالتها طلب الاقتران بها فرفضتهُ وهو الامير احمد
ذا الخبر وذهابها مع اهلها الى حاصبيا في هذه الاوقات بلبلا
الغد . لا داعي لاخبار اقلين بشيء من هذا القبيل بل يكفي
الى مساعدتها وكرمها ولقد اعطاها الله ثروة وافرة لتساعد بها
ق بكل ما يمكنها التصدُّق بهِ وانا اراقب توزيعهُ على مستحقيهِ
ري خصوصية من حيث املاكهم وريعها وراتبهُ وعلب سيفي
سورية

الفصل الحادي والعشرون

الشهابيون في بيروت

الى مدينة بيروت بخدمهم وحشمهم واستأجروا دورًا ونزلوا بها
ن عما كانت وهم في دورهم لان اكثر مواد الطعام هم والعلف
املاكهم فلا يدفعون ثمنها اما الآن فاضطروا ان يشتروا الحنطة
ون والحبوب على انواعها والشعير والتبن . وكان لا يزال عندهم
الذي باعوهُ او انزلوهُ معهم الى بيروت فانفقوهُ في ايام قلائل
الاستدانة منهم من تجَّار بيروت وصيارفتها فاغتدل الدائنون
رويدًا رويدًا يومًا بعد يوم
ار بينهما الحديث التالي

نقولا — هذه فرصة نادرة يا مارون اذا لم نستعملها سنقدم لها شعور

مارون — وما هي هذه الفرصة النادرة عسى ان لا تكون مثل فرصة الصوف التي خسرنا بها عشرة آلاف ليرة

نقولا — من كان يعلم ان استرالية تمثل حمل في سنة واحدة وقلة لديه صوف ومع ذلك نورّط الى هذا الحد في المشترى والتحرير كان رأيك ورأي عمك وحيد ما هنالك ايي سدتكم الى الصنف وقلت انهُ ينتظر السعود في بعض على ما كنت اقرأهُ في الجرائد اربة وبناء على ما كتب لي عميلي من لاد الاسكليز

مارون — ما عليا من مسألة الصوف فما هي هذه الفرصة النادرة

نقولا — الشهابيون في بيروت وقد صاروا على الارض متد عوا كل حريرهم وصرفوا ولا امل لهم بشيء من مواسم الغلال وهم يستدينون منذ الآن عشرين وثلاثين وخمسين فاقة عازمون ان يسلخوا جلدهم اما انا فلا رأي لي ان نديهم لاني لا احتمل ان ندين شرين وثلاثين بل ان نشتري منهم املاكهم في سوق بيروت ووصايهم الكتب فان كل اتين التوت هناك لهم ويمكننا ان نشتريها منهم الآن ارخص ثمن

مارون — اتعرف كم ايراد المنك الآن

نقولا — اظن ان الايراد قليل لا يزيد على اربعة وخمسة في المئة ولكن اسعار اصلات ستزيد فيزيد معها ثمن الملك

مارون — كيف عرفت ان اسعار الحاصلات ستزيد وما ادراك انها لا تنقص

نقولا — اني اعرف ذلك لسببين السبب الواحد يمكنني ان احدثك بهِ وهو ان دود الحرير مروب في فرنسا وايطاليا وقد اجتهد الفرنسويون كثيرًا في علاج المصرة فلم يجدوا لها علاجا لا بدَّ ما يرتفع ثمن الحرير فيرتفع ثمن بساتين التوت هذا هو الامر الاول . والامر الثاني عبرك بهِ على شرط ان تعدني انهُ يبقى الآن في سرك

نقولا — اذا كان الامر يحتاج الى كتمان فاعدك بكتمانهِ

مارون — لو ما كان يحتاج الى الكتمان ما كنت اطلب منك كتمانهُ

نقولا — قل لي ما هو وانا اعدك بكتمانهِ

مارون — اني اعلم عن ثقة ان عساكر فرنسا ستحتل سوريا والمرجح انهُ لا يمضي شهران حتى يكونوا هنا

فلما سمع نقولا هذا الكلام ابرقت اسرّتهُ وقال اذا كان الامر كذلك فستتضاعف قيمة

الاملاك حتماً فما العمل ومَن يطلبها لنا من الشهابيين

مارون — ليس لنا الاَّ السمسار عنطوس فهو يدخل فيهم مثل النعس و يلبص عليهم مثل الباطلينوس

ثم استدعياهُ وسألاهُ عن الشهابيين وتدرَّجا معهُ في الحديث الى مشترى الاملاك اي الاراضي المرروعة توتاً وجنائن في ساحل بيروت ووطإ نهر الكلب فوجداهُ على تمام الخبرة باحوال الشهابيين واتفقا معهُ على السمسرة وعلى ان يذهب و يعاين الاملاك و يأتيهما بوصفها

وقام من ساعتهِ لهذا الغرض فاجتمع برجل اسمهُ عبد الله كان مستلمًا اشغال امير من اغنى الامراء واكثرهم اسرافاً . ويحكى عن هذا الرجل انهُ تورَّط في احتلاس اموال مولاهُ حتى اغنى واقتنى املاكاً و بنى دوراً فاشتكى منهُ اولاد مولاهُ لابيهم وقالوا لهُ ان عبد الله نهبك والناس كلهم يلومونا لاننا ابقيناهُ عندنا كل هذه المدة فقال لهم ان هذا الرجل كان جائعاً فشبع الآن فاذا عرلناهُ واتينا بانسان آخر يكون جائعاً فيضطر ان ينهب لكي يشبع فخير لنا ان نبقي الشبعان من ان نستخدم رجلاً جوعان

وكان عبد الله هذا على ما يُطلَب من اتساع الذمة فسارَّهُ عنطوس واتفق معهُ على قسمة السمسرة مناصفةً . وكان الامير قد فوَّض اليهِ عقد سلفة بالفي ليرة فجاءهُ في المساء بعد العشاء وجعل يشكو من ارتفاع الفائدة وان المداينين ماسكون السكين ليذبحوا ذبحاً فلا يعطون المئة باقل من خمسة وعشرين في السنة و بعد كل جهد ابرلهم الى اثنين وعشرين

وكان الامير اكولاً يأكل دجاجةً او دجاجتين على عشائهِ ومتى شبع اتكأ على مسند الى ان ينام فيقلَب الى فراشهِ قلباً و ينزل دمهُ الى معدتهِ فلا يبقى منهُ في رأسهِ ما يكفي لتوليد الافكار او لتشغيل العقل فقال لعبد الله وما رأيك ولا اظن ان احداً يدينا باقل من دلك في هذه الضيقة . فقال عبد الله انني اهتديت الى طريقة أخرى لاحد المال المطلوب من غير ان نخسر خسارة تذكر وهي ان الاملاك التي تحت قناطر زبيدة لا يبلغ ايرادها مئة ليرة في السنة ويمكننا ان نبيعها بالفي ليرة وفائدة الالفي ليرة ٤٤٠ ليرة على الاقل فاذا بعناها نكون قد وفرنا ٣٤٠ ليرة في السنة وعندي سمسار يمكنهُ ان يبيعها لنا بهذا الثمن اذا اعطيناهُ سمسرتهُ

ففتح الامير عينيهِ وقال لهُ اعد لي ما قلتهُ ثانية . فكرَّر لهُ الكلام الاول بالتأني . فقال فهمت فهمت نبيع العلقة التي تحت القناطر بالفي ليرة هي والمطحنة طيب بعت اكتب الحجة حتى امضيها لك

وفي اقل من خمسة ايام اشترى غسطوس صرجه نقولا وصوجه مدوّن املاكاً بنحو عشرة آلاف ليرة وهي تساوي عشرين و ... ليرة . ودرى غيرهم من التجار بذلك فجعلوا يتسابقون الى مشترى الاملاك وهي من جرى التسعير بين لانهم كانوا يعتصمون الهاربين لنقب الارض وحرثها وغرسها وكان المدينون تعبوا على اشغالها وورثوها اما لم يتعبوا بها فسهل عليهم بيعها وهكذا انتقل جانب كبير من املاكهم الى تجار بيروت . ولقد احسنوا في ما فعلوا من بيع الاملاك بدل استدانة الاموال ورهنها لانهم لو استدانوا ورهنوا املاكهم لتضاعف الدين في ثلاث سنوات فالمدينون لم يروا عليهم بالبيع لم يضروهم ولكن جاءهم الضرر من جهة اخرى وهي ان كثيرين منهم رأوا نجاح التجار ومكاسبهم الكبيرة فسوّلت لهم النفس ان يبيعوا املاكهم و يتجروا بثمنها وفاتهم ان التاجر يمارس التجارة ولداً ويربى فيها من صغره حتى يتمرّن عليها و يعرف اساليبها واسرارها و بغير ذلك تكون التجارة خاسرة فلم يمضِ عليهم وقت طويل حتى خسروا كل الاموال التي وضعوها في التجارة وهذا شأن كل من يستسهل الاعمال ويتعاطاها قبلما يتمرّن عليها

الفصل الثاني والعشرون

المذاكرات السياسية

اجتمع مجلس الوزراء في بلاد الانكليز للنظر في ما سيطرح على البارلمنت من المسائل ومنها مسألة عن جبل لبنان والفتنة التي انقدت نارها فيهِ . فقال وزير المستعمرات هذا هو الامر الذي كنت اخشاهُ من حين شرعت الشركة الفرنسوية في انشاء سكة المركبات من بيروت الى دمشق فقد اخذت الآن تقول ان لها مصالح مالية في سورية لا يمكنها الاعصاء عنها وانهُ لابد لها من ارسال جنودها لحماية مصالحها هناك

فقال وزير المالية الى اين وصلوا في انشاء ذلك الطريق . قال ذلك موجهاً خطابهُ الى ناظر الخارجية

فاجابهُ وزير الخارجية لا يمكنني ان اقول بالتأكيد الى اين وصوا لانهم ابتدأوا من اماكن مختلفة في وقت واحد على ما كتب بهِ اليَّ قنصلنا في بيروت لان البلاد جبلية وفيها كثير من الآكام والاودية والغدران ولا بدَّ من بناء جسور كثيرة في اماكن مختلفة فبنوا هذه الجسور ومهدوا الطرق بين جانب كبير منها على ميول معتدلة . ولا يسعنا ان نذكر انهُ

صار لهم مصلحة مالية ثابتة في البلاد ولنا نحن ايضاً مصلحة مالية بسبب تجارتنا الواسعة وهي اوسع من تجارة فرنسا بل مثل تجارة اوربا كلها ولكن ليس لنا رأس مال موضوع في البلاد مثل فرنسا الاّ اذا اشترينا الشركة الفرنسوية . وقد خابرت بعض الماليين في مشتراها فلم ارَ منهم رغبة في ذلك لانهم يظنون ان ترعة السويس ستبطل طريق التجارية البرية بين بيروت وبلدان المشرق وليس الاعتماد على تجارة دمشق نفسها بل على البلدان الشرقية التي تصل تجارتها الى دمشق

فقال وزير الحربية وهل تظن ان الفتنة خمدت واكتفى الفريقان بما حدث

فاجابهُ وزير الخارجية كلا بل يظهر من تقارير قناصلنا ان النار لا تزال مخبوّة تحت الرماد وانهُ لابدّ من امتداد الفتنة الى المدن الكبيرة في داخلية البلاد ودمشق نفسها ليست بمأمن من ذلك . والقناصل باذلون جهدهم لاخماد الفتنة وحماية النصارى ولكن الامر ليس في يدهم لانهُ يظهر ان اوامر سرية وردت من الاستانة الى رجال العسكرية لايقاد نار الفتنة وليس المراد بها الفتك بالنصارى دون الدروز بل مساعدة فريق على فريق فيصح ان يساعدوا الدروز على النصارى ويصح ان يساعدوا النصارى على الدروز والمراد اثارة الفتنة على كل حال وتضحية بعض النفوس لغرض سياسي وهو تحريك اوربا لالقاء المسؤولية على الحكومة الحالية . هذا هو الغرض الذي يرمون اليهِ على ما اتصل بنا واخواننا عبر الخليج يرمون الى غرض آخر ولكنهم يتوسلون اليهِ بالطريقة نفسها اي بايقاد نار الفتنة في البلاد ونحن نكاد نكون مغلولي الايدي وقد كتب الينا قنصلنا في بيروت انهُ باذل قصارى جهدهِ لايقاف الفتنة عن هذا الحد واطفاء نارها ويساعدهُ على ذلك صديق قديم لنا من مشايخ الدروز لهُ اكبر سلطة على جماعتهِ فاذا نجح في سعيهِ ووقفت الفتنة عند هذا الحد فلا اظن ان جيراننا يصرّون على ارسال جنودهم الى هناك واذا لم تقف عند هذا الحد بل شملت البلاد كما يخشى فلا بدّ لنا حينئذٍ من تدبير آخر

فقال وزير الحربية انا نطلب حينئذٍ ان يكون الاحتلال مشتركاً ونرسل فرقة من جنودنا

فقال وزير المالية وهل في الامكان ارسال جيش الآن مع ما نحن فيهِ من الضيق المالي ولا ارى ان الميزانية تساعدنا على ذلك

ونظروا الى رئيس الوزراء كأنهم يطلبون رأيهُ فقال ليس من الحكمة ان نرسل جنودنا مع جنود فرنسا لانهُ قد يتولّد من وجود الجيشين مشاكل ليست في الحسبان وفوق ذلك فان جيراننا يستسهلون ان يرسلوا عشرة الآن مقاتل الى هناك ونحن لا نستطيع ان نرسل هذا

العدد ولا يليق بكرامتنا ان يكون عدد جنودنا اقل من [illegible] حيث نريد ان يقوى وكمي رجا [illegible] يكون ليسهل جندها باسم اورنا كان وحينئذ يسهل علينا [illegible] الاستغناء عنهم

فاستصوب الجميع هذا الراي وصمم على ان يصرح لحضرة سفير روسيا في وسفير بروسيا قبلما يكلم سفير فرنسا

واجتمع البارلمنت في المساء فدخل احد الاعضاء فرأى في جريدة اسبوعية ان حربًا اهلية نشبت في سورية وان لبعض الدول الاوربية يدًا في ذلك فهي الاخبار التي عند الحكومة وما هي التدابير التي عزمت على اتخاذها لاخماد هذه الفتنة

فاجابهُ رئيس المجلس ان ما قرأهُ حضرة العضو المحترم صحيح وجه الاهتمام والحكومة تنظر الآن في التدابير التي يجب اتخاذها ومتى قررت شيئًا لا تتأخر عن اخبار المجلس بها

فقال عضو آخر ان لنا مصالح مدنية كبيرة في مدينة بيروت فهل يخشى على تلك المدينة وما هي التدابير التي اتخذتها الحكومة لوقاية مصالحنا هذه

فاجابهُ الرئيس ان الاخبار التي وردت اليه حتى الآن لا يخشى منها على مدينة بيروت وعلى ذلك فقد امرت نظارة البحرية بارجة من اسطول البحر المتوسط بالذهاب من مالطة الى سواحل بيروت وسواحل سورية

وقال عضو ثالث ان جماعة من المبشرين الانكليز مستشرون في مدن سورية فهل اتخذت الاحتياطات اللازمة لوقايتهم

فقال الرئيس يظهر ان قناصلنا لم يغفلوا عن ذلك ولا عن حماية المرسلين الاميركيين والمرجح ان المتحاربين يحترمون الراية الانكليزية مهما كانوا لان اعمال محبتها الجيدة في سورية ولا سيما في بيروت وعكاء لم تنسَ من تلك البلاد حتى الآن

ثم دارت المناقشة في مواضيع اخرى داخلية وخارجية

اما في فرنسا فلم تدخل المسألة مجلس النواب بل اكتفت الوزارة بمداولة فيها وبيّن ناظر الحربية ان الجنود مستعدة للسفر عند اول اشارة وان معارضات انكلترا على ما جاءهم في التقارير السرية لا يعبأ بها لان انكلترا لا تستطيع ان ترسل جيشًا مثل جيش فرنسا ولا تستطيع ان تمنع ارسال الجيش من فرنسا بعد ان يتفاقم الخطب في سوريّة ويتحفّز نصارى كسروان للاخذ بثار اخوانهم

الفصل الثالث والعشرون

استفحال الفتنة

مُرَّ الدروز بالفوز المبين الذي فازوهُ في ساحل بيروت وودُّوا الاكتفاء بهِ حاسبين انهم قهروا الشهابيين وهم عمدة النصارى الآن والي بيروت لم يكن من رأيهم فجمع بعض امرائهم الى الحازمية خارج بيروت وقال لهم انكم لم تفعلوا شيئًا حتى الآن ولم يزل النصارى اقوى منكم كثيرًا ولا بدَّ لهم ان يأخذوا بالثار ولا سبيل لاضعافهم حتى تامنوا شرهم الاَّ بتخريب مدنهم الكبيرة زحلة ودير القمر وجزين وحاصبيا وراشيا فازحفوا عليها والفوز لكم

فدبَّت النخوة في رؤوس البعض منهم وقالوا لهُ سمعًا وطاعة وخاف البعض الآخر سوء العاقبة ولا سيما لانهم كانوا يعلمون ان دول اوربا لا يمكن ان تسكت عن ذلك فقالوا لهُ اننا في المتن والشوف والعرقوب ووادي التيم كثار ولا يعسر علينا التغلب عليهم ولكن لا يخفى على دولتكم ان نصاري كسروان اكثر منا كثيرًا فاذا جاءوا لنصرة اخوانهم فلا طاقة لنا بهم

فقال لهم اننا احتطنا لذلك ونصارى كسروان لا يحركون ساكنًا ولو تظاهروا بمساعدة اخوانهم ألم تروا كيف انفضَّ جمعهم من بعبدا حالما امرناهم بذلك . ثم انصرفوا من لدنهُ واكثرهم واثق انهُ يفعل ما وعدهم بهِ

ووصل الي دمشق في تلك الاثناء رجل اسمهُ صادق افندي وجعل يجتمع بشايخ الدروز من حوران وبعض مشايخ لبنان حتى اذا تمَّ عملهُ الذي حضر لاجلهِ أُمر بالعوده الى الاستانة بعد ان اسرَّ الى الوالي بما جاء لاجلهِ . ويقول اهالي دمشق ان سلوك الوالي تغير معهم بعد سفر صادق افندي

ثم اجتمع الدروز وحاربوا اهالي جزين وبكاسين وحرقوهما وقتلوا كثيرين من سكانهما وزحفوا بعد ذلك على زحلة وكان كثيرون من نصارى العرقوب قد قاموا لمعاونة اهاليها فالتقوا بالدروز عند ظهر البيدر وكادت الدائرة تدور على الدروز وقتل هناك ابن عقيدهم علي ابن خطار العماد . وكان الشيخ اسمعيل الاطرش قد جمع دروز حوران وعربها عملاً بامر والي دمشق وقام بهم لنجدة دروز لبنان حتى اذا دخل وادي العجم وجد فيهِ بعض النصارى من اقليم البلان فقتلهم وهم ١٣٥ نفسًا وسار برجالهِ الى ان وصل الى زحلة وفي اثناء ذلك وصلت اليها فرقة من الجنود العثمانية وعسكرت امامها وحينئذٍ هجم الدروز عليها من الجنوب والغرب فصد اهاليها هجماتهم وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية وظلت الحرب سجالاً الى ان قدم عليها

رجال من الدروز من جملة الشهود الذين لاهجي بتقريرهم شهادة من يوسف بك كرم فظنوهم نجدة مستطرة فكمنوا له [illegible] حتى جاء بعد عن الطريق العامة فانهزمت من امامه ورأى هو في زحلة [illegible] فارتدوا رويداً رويداً وظلوا يتسللون من امامه الى ان خرج [illegible] في زحلة وساروا الى جهة بسكنتا والظاهر ان الخوف من العرب وجنود الدولة كان هو الذي اغلب ولولا ذلك لتعذر اخذ تلك المدينة

وكان في زحلة رجل من اهالي دير القمر رأى ما جرى فحذره فعاد الى الدير مذعوراً وان لا بدّ من الزحف على دير القمر فكتب الى ترجمان قنصل الانكليز في بيروت يخبره بما جرى في زحلة وبما يوجس منهُ ويوسل اليه كي ينزل كل ما في وسعه لمن يحرض على الذهاب الى دير القمر بانفسهم لانهُ اذا احاط الدروز بها لم يبق لاهلها مهرب منهم

فسعى الترجمان مع غيره من وجوه دير القمر المتوطنين ببيروت لدى قناصل الدول فلبوا طلبهم واتفق قنصل انكلترا مع قنصل فرنسا على الذهاب الى دير القمر فلما ذهبا ما حدث شيء مما حدث فيها ومما حدث في غيرها بعدها ولكن وصل بيروت اثنا قنصل فرنسا بان لا داعي لذهابهِ وانهُ هواي الوالي يرسل قومندان مركز ولاية ومديرها وقال مثل ذلك لقنصل الانكليز واقنعهُ بان لا داعي لذهابهِ. ثم ارسل القومندان فذهب وجمع شيخ الدروز وحرضهم على الفتك بالنصارى. قيل ولما رأى سعيد بك جنبلاط منذ دنت ساعتهُ امين من خواصهِ الى اهالي دير القمر يطلب منهم ان ينزحوا اليهِ الى المختارة اذا وافق القومندان فصدّق بعضهم كلامهُ وساروا اليهِ فحماهم واما الدروز فجمع امير لاي العساكر العثمانية سلاحهم بعد ان تهددهم بان لا امان لهم ان لم يعطوهُ السلاح وكانوا قد اخفوا كل ما عندهم من البارود والرصاص فسلموهُ اسلحتهم فادخل الدروز الى مدينتهم فنهبوها ثم ذبحوا كل الذين التجأوا من الاهالي الى سراي الحكومة. قيل وكان متسلم دير القمر مخلصاً للاميرالاي في هذا العمل الوحشي وحمى كل الذين التجأوا الى داره من الاهالي لكن الاميرلاي امر الدروز والدروز ان يدخلوا دار المتسلم عنوةً ويقتلوا كل من لجأ اليها ففعلوا ثم ان المتسلم نفسهُ جرّع غصص المنون بعد ان عاد الى بيروت

هذا بالاختصار التام اما التفصيل فتقشعرُّ منهُ الابدان وتذوب لهُ النفوس اسىً فانهم كانوا يذبحون الولد على ركبة والدتهِ وينزعون الطفل من يد امهِ ويضربونهُ بالسيف فيشطرونهُ شطرين ويردونهُ اليها قائلين خذيهِ فقد اسكتناهُ لكِ ويقطعون اوصال الرجل

عد من الذكور وقد جنّ بعض النساء ممّا رأينَ من الفظائع
ذا اطلق العنان لشهوة الغضب وما اقبح التعصب الديني اذا
ين يخالفونهم ديناً . واقبح من هذا وذاك تدبير المذابح وتنظيمها
ك الوالي وزبانيتهُ وتلك الفئة الطاغية في الاستانة فانهُ كان
ُول اليهِ الحال ولكنهم اغمضوا عيونهم لكي لا يروا وصموا

ت الى الكولونل روز قنصل الانكليز الجنرال في بيروت
في حاصبيا وراشيا وخلاصتهُ ان الامير سعد الدين كان في
اية على بلاد حاصبيا فاعطيت لابنهِ الامير احمد وكان احمد
طلب منهُ ان يعود الى حاصبيا مع فرقة من الجنود العثمانية
دروزها . واستشار الامير سعد الدين صديقاً لهُ من
هب لئلاّ يغتاظ الدروز من مطالبتهم بالاموال في ذلك
ن الذهاب لكن الوالي لم يعفهِ بل اضطرّهُ اضطراراً
اذا وصل الى حاصبيا وطالب الدروز بالاموال الاميرية
من كل الجهات المجاورة لها . فخرج النصارى منها لمناوشتهم ثم
هجم الدروز على بيوتهم وسلبوها ثم حرقوها وقال امير الاي
ان يحميهم ما لم يسلموهُ اسلحتهم فسلموهُ اياها فبعث بها الى
نعهم من الهرب منها . وبلغ القناصل في دمشق ما حدث
طاً كردياً من دمشق ليأتي بنصارى حاصبيا اليها وقرّ القرار
فطلب ان يؤذن لهُ بضرب الدروز ان هم منعوهُ من جلب
ذلك فرفض الذهاب على هذه الصورة فاستدعى الوالي
اوراً الى حاصبيا ومعهُ الاوامر اللازمة لامير الاي الجنود
بيوم واحد أدخل الدروز الى السراي التي فيها النصارى
ج الغنم ومثلوا بهم تمثيلاً ثم صعدوا الى دار الامير سعد
وقتلوا صهرهُ الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء
صارى . وهجم دروز حوران على راشيا فادخلهم الجنود الى
التجأ اليها من النصارى وبلغ قتلى حاصبيا نحو ٧٠٠ نفس

قتلى راشيا ٥٠٠ وقتلى دير القمر وما جاورها نحو ١٥٠٠ نفس قُتلوا كلهم في الدم البارد بعد ن سلموا اسلحتهم لرجال حكومتهم

ولا تحسبنَّ الدروز كلهم اشتركوا في هذا العمل الفظيع - اصتهم وعامتهم . كلاَّ فان بض العامَّة وكثيرين من الخاصَّة كانوا اشد الناس مودة للنصارى فدافعوا عنهم وحموهم ، بيوتهم من كل اعتداء ولولاهم ما نجا احد

ولما اطَّلع السر هنري بدمونت على ما حلَّ بحاصبيا حيث كانت الاميرة سلمى ووالداها جفت شفتاهُ واصطكَّت ركبتاهُ وكاد يغمى عليهِ ثم غلى الدم الاسكتسي في عروقهِ فاحمرَّت جنتاهُ ونهض وجعل يمشي في غرفتهِ ذهابًا وايابًا بل يركض فيها ركضًا كمن يطاردهُ عدو دخل الكولونل روز عليهِ وهو على تلك الحالة وكان قد قرع الباب مرارًا ولم يسمع مجيبًا ففتحهُ فائقًا ان يكون السر هنري مريضًا فلما وقعت عينهُ عليهِ قال لهُ السر هنري قرأت تواريخ البشر لحاضرين والغابرين فلم ارَ ولم اسمع ان دولةً تقتل رعاياها لغير اثم ولا حرج قضاء لمآرب خصية كيف صبرنا على هذا الجور وكيف نصبر عليهِ . اذا رأينا رجلاً يعذب نعجة او صفورًا بغير سبب ألا نتعرض لهُ فهب ان هؤلاء المساكين نعاج او عصافير افلا تقضي لشفقة علينا ان نتعرض لمن يمسك الرجل منهم ويقطع اذنيهِ ويديهِ ثم يذبحهُ ذبحًا. ألا تعرض لمن يلقي راس الولد على ركبة امهِ ويذبحهُ عليها ألا نتعرض لمن يأخذ الطفل الرضيع ن يدي والدتهِ ويطعنهُ بخنجر ثم يردهُ اليها والدم يسيل من صدرهِ . ما هذا التوحش ما هذا الجمود الذي نحن فيهِ. اين الشهامة اين المروءة ثم ما حال اولئك الارامل الثاكلات لنائحات النادبات وما حال بناتهنَّ اذا كنَّ قد تُركن لهنَّ واين مقرهنَّ الآن . وفي تلك للحظة عينها خطرت ببالهِ صورة سلمى ممزقة الاذيال تجري بين الصخور والادغال ووراءها يغد يجدُّ في اثرها فجمد الدم في عروقهِ ثم انتفض كما انتفض العصفور بللهُ القطر وقال للكولونل روز ألا تظن انني استطيع ان اقوم ببعض ما يجب علينا اذا ذهبت الى صيداء واستصحبت فصلنا او بعض القواسة ومضينا الى جهات حاصبيا ووادي التيم نفتش عن الذين سلموا من القتل والموت فنغيثهم ونأتي بهم الى بيروت

وقبل ان يجيبهُ الكولونل على ذلك شعر انهُ اخطأ في ما قال لان غرضهُ الاكبر من هذا الذهاب شخصي وقد عبَّر عنهُ على اسلوب يفهم منهُ انهُ مجرد عن كل غاية شخصية فلام نفسهُ على ما فرط منهُ واستدرك قائلاً ولي في ذلك مأرب شخصي لا اخفيهِ عن الكولونل . ثم قصَّ عليهِ قصتهُ مع الاميرة سلمى من اولها الى آخرها

مير عباساً ويودهُ لاخلاصهِ ويعلم انهُ على خلاف مع الوالي وانهُ كنهُ لم يكن يعرف شيئاً عن ابنتهِ ولا عن علاقة السر هنري بها مة وشعر بسلطة الحب شعور من نسي صديقاً عزيزاً ثم التقى بهِ قم ولا تتأخر ساعةً واني لاستغرب سكوتك عن ذلك الى هذهِ الاميرة لك ولكن مهما كان شأنها فليس من الشهامة ا الوقت وانت قادر على مساعدتها . لو كنت مكانك لذهبت

لك وقال لهُ يشقُّ عليَّ جدًّا ان اتركك في هذا الوقت مع هذا الحر الذي يكاد يزهق النفوس ولكن ما دام الذهاب

. القواسة ان يعد ما يلزم لذهابهم الى صيداء وجهات مرجعيون تب الى امهِ بخلاصة ما بلغهم من اخبار المذابح وطلب منها ان صدقات من اهل البر والاحسان وقال لها ان ما ترسلونهُ من ليهِ اعظم شكر لان علينا ان نطعم الوفًا من النساء والاطفال دم لاقلين وبالالتجاء الى كرمها وحنانها

الفصل الرابع والعشرون

حادثة دمشق

ني ولا اشدَّ منهُ خطرًا على البلاد لاسيما وانهُ سلاح الرعاع وشًا ضارية لا تأخذهم شفقة ولا رحمة . ويا ويح بلاد يطلق الانتقام من مخالفيهم مذهبًا فان التاريخ يشهد انهم كانوا وتكبون اقبح الموبقات مع اسيادهم الذين هم غرس نعمتهم . واي كينًا في بيتك وتأتمنهُ على اولادك واموالك ثم تراهُ وقت الشدَّة والخنجر في يدهِ يغمدهُ في صدرك وصدور اولادك لكي يغتنم ل تصل الى هذه التراسة ولكن ابن آدم يقدم عليها عفوًا اذا ديني . كذا فعل اليهود بالنصارى والنصارى باليهود واهل نة باهل الشيعة ولا تزال امثال هذه الفظائع تجري في بلدان

المشرق وان زالت الآن من بلدان المغرب حتى لقد يقف المرء حائرًا بين فوائد الاديان ومضارها وايها اكثر لدوع الانسان وان شئت فقل المتنطعين في الاديان لان الدين بريء مما يفعله المتنطعون فيهِ باسمهِ

اهالي دمشق من مسلمين ونصارى من الين الناس عريكة واكثرهم وداعة وقد عاشوا السنين الطوال متآلفين متحابين والنصارى قليل العدد جدًّا وكأنهم عائشون في حمى المسلمين وهؤلاء اهل نقى ومسالمة ولاسيما الكبراء منهم ولكن لما اراد ذوو الشأن ان يوقعوا الجفاء بينهم وبين المسيحيين لاغراضهم لم يتعذر عليهم ان يجدوا من يجيب نداءهم من العامة فحرضوهم واطلقوهم فانطلقوا كالنار في الهشيم يذبحون ويفتكون الى ان جرت الدماء انهارًا وحلَّ بالمسيحيين هناك ما لم يحلَّ بهم مثلهُ من زمن الفتح الى الآن . ولولا بعض الصلاح ذوي الشهامة والنجدة لما ابقى الاشرار على احد . كلُّ ذلك والوالي متسلح بالاوامر السرية التي في يدهِ وغير خائف ان يطالَب بشيء مما فعل

ووصلت اخبار هذهِ المذابح الى بيروت وهاجر اليها من بقي حيًّا من نصارى دمشق وسائر مدن الشام التي اصابها ما اصاب دمشق فازدحمت بهم منازلها وشوارعها وساتينها حتى كنت ترى عائلتين او ثلاثًا في غرفة واحدة بل اخرجوا الدواب من مرابطها وسكنوها. والاولاد المعتادون رفاهة العيش كانوا يفتشون عن اوكار النمل ليأكلوا ما فيها من الحبوب واذا اصاب احدهم رغيفًا اجتمع حولهُ عشرون من امثالهِ يقاسمونهُ اياهُ

وبادر اهل البر والاحسان في اوربا الى معونة اولئك المنكوبين بسخاء حاتمي فارسلوا اليهم اكياس الدقيق واثواب القطن والصوف وكثيرًا من النقود واقيمت اللجان في بيروت لتوزيع الاحسان ولولا ذلك لمات كثيرون جوعًا

وظلَّ المنكوبون في بيروت يتقلبون على مثل جمر الغضا ويبحث بعض النساء عن ازواجهنَّ واولادهنَّ وهنَّ لا يعلمن أفي عداد من قُتلوا هم او لم يزالوا في قيد الحياة وكل يوم يصل جريح لم يجهز الاعداء عليهِ فبقي مغطًى بالقتلى مغمًى عليهِ من كثرة ما نزف من دمهِ الى ان افاق ودفعتهُ بقية الحياة الكامنة فيهِ الى الهرب فجعل يسري ليلاً ويختبيء نهارًا وهو يسدُّ رمقهُ باعشاب الارض الى ان بعُد عن مواقع الخطر. والاطفال الذين ارضعتهم امهاتهم لبن الحزن يموت الواحد منهم بعد الآخر وتتواصل الدول يكتبون الى دولهم يشرحون لها وقائع الحال وهم مجمعون على استقباح ما جرى واستفظاعهِ . ورجال الدولة متربصون ليروا ماذا تكون العاقبة وهم يكذِّبون تارة ويشجبون اخرى قائلين ان لا شان للدول الاجنبية حتى

رعاياهم . ووحوش البر وطيور السماء قزت نفوسها من اكل
مها الطبع اليها و يبعدها الشبع عنها وهو شعور جديد لم تعرفهُ
ن منازل اكلتها النار والنجوم تتطلّع عليها فلا ترى فيها غير
م الله على خلق الانسان كما ندم في عهد نوح وودّ ملائكتهُ ان
يطهرها من الاشرار
ان كانت ارض الموعد جنة الله في خلقهِ الارض التي كانت
لتي نشأت فيها دمشق وصور وصيداء واورشليم و بيروت وعكاء
د وصناعة الفينيقيين التي طمع فيها الفاتحون من كل الاقطار
. بلاد الضيافة والشهامة وعزة النفس . هذه البلاد اوصلها سوءُ
يحرّش بينهم ليفترس بعضهم بعضاً

فخر والى اين
و نا راجع الى البيت والله ما عاد لي نفس اجلس في القهوة
جرى
ال ان السفرا والقناصل طلبوا مساءلة كل مشايخ الدروز وشنقهم .
قل هو خبرني انا القطها طائره من هنا كلمة ومن هنا كلمة . والله
، لطلعوا مقابل كل الافرنج
ت ان فرنسا عازمة ان ترسل عسكراً كبيراً الي هنا
ح من قال لك ذلك . فرنسا كانت مع مولانا السلطان وقت حرب
، الكلام بسرك زادوها قال قتلوا كل النصارى في الشام . هذا
لمار . الله يساعدنا قُل آخر زمان قرب وقت المهدي . ما سمعت
الامير احمد انا ربيتهُ و بالي مشغول عليهِ سألت الوالي عنهُ قال
وران . الله يهونها آخر زمان آخر زمان
ر مع قدّورا افندي على ما تقدّم كان الخواجه بخور والخواجه شمعون
فتهما من دمشق وفي ما يخشى منهُ على بيروت
ة هائلة وقد انتقمنا منهم على ما جرى لنا في مسألة البادري توما
الذي كان في بيت الخوري وكل شيلان الكشمير

فقال شمعون وما ادراك انهم لا يرتدون اليه بعد ما يخلصون منهم

بخور — كل بالي مشغولا من هذا القبيل في اول الامر ولكن بعد اصبان فان صحابي ذهبوا في اسطنبول وتمت معاملتي توصية بوصي ما في الشام وسيفي بيروت حتى حوانا الدين في دير القمر ما اصابهم شيء لكنه يهودا على اسرائيل فهو يحكم الشام القاضي

شمعون — والصبي الذي اشتروه هل هو شيء يخبر

بخور — شيء لا مثيل له في قصور الملوك فانهم كانوا يتوارثونه الناس حد صحون زبادي وقوارير كبيرة وصغيرة من كل الاشكال وعمره قديم حدّ عمره اكثر من الف سنة وكان التاجرون عارضين على بكسيرو وكم ربك حميد وصل يوسف اليهم قبلما كسروا شيئًا منه واشتراه كله بليرتين وذاك هو كل الصبي الذي اعرفه فيسوي خمسة آلاف ليرة واشترى ايضًا من شيلان الكشمير ما يسوي الي ليرة على قوله ولم يدفع تمنه لآن نحو عشرين ليره . اما القصيات والنحاس فلا تسأل عنها لانها كثيرة جدًا وتسابق الناس الى شرائها

شمعون — اذًا سنة مباركة وهل تظن انهُ يحدث شيء هنا

بخور — لا يبعد فاني كنت عند الوالي امس فكلمني باتليح وما يصرح ما ده فاخاف من المراكب الحربية لانهُ اذا جاء مركب واحد حربي لا يعود احد يجسر على شيء

شمعون — والاخبار من لندرا

بخور — الدنيا قائمة قاعدة هناك الاعضاء في مجلس النواب يسألون الوزارة مئة سوال كل يوم . والقسوس يعطون في الكنائس ويحرضون الناس على الدولة . والمتيحة طيبة على كل حال لانهم يجمعون الاموال ويرسلونها الى هنا . هذه خلاصة آخر مكتوب وصلني اليوم

يوسف — الله يصرفها على سلامة اقول لك مال الدنيا يبقى في الدنيا وانا قلبي ريق فاني حينما ارى هؤلاء الارامل والاطفال يتفتت قلبي واتذكر الايام التي كنت اصير فيها بما مثل ذلك واخاف ان ينقلب الدهر والدهر دولاب فيصيبنا كما اصابهم . اله اسرائيل حي لا يموت الله ينجينا من اولاد الحرام

بخور — الحق معك مال الدنيا يبقى في الدنيا هذا سلمون مات وهادا أخذ معهُ ولكن الله أوصانا ان نجمع مال الامم . ألا تتذكر ماذا قال لنا لما أمرنا بالخروج من مصر . والمال قوة كما يقول الانكليز

ودخل ثالث فانقطع الكلام في هذا الموضوع

لفصل الخمس والعشرون

توقّع القضاء

ر احد احياء بيروت قليلة صغيرة متفرقة بين بساتين التوت
سارى الدين سلموا من المذابح فكنت ترى البيت الذي فيهِ
ولم يكد يستقرّ بهم المقام حتى احذ الرجال منهم يفتشون
اء نساء الحي في تسليك الحرير وكبّهِ فاكتسبن ما ساعدن
م يترك الاولاد يلعبون في الشوارع بل أُرسلوا الى المدارس
ولادهم من الضروريات التي لا بدّ منها فترى الرجل يقتصد
رأة تبيع حلاها وتعلم اولادها ولا يكتفون بتعليم الصبيان

، وهي غرفة واحدة على دائرها مقاعد من الخشب والاولاد
لم جالس على كرسي الى جانب الباب وامامهُ مائدة صغيرة
ـ من الرمان — وقف ثلاثة اولاد امام المعلم وجعلوا يقرأون
اميركية وبينما هم يقرأون والمعلم يصلح اغلاطهم و يأمر المجتهد
طويل القامة اسمر اللون عابس الحبين لابس دامرًا مرخي
لطول قامتهِ فنهض المعلم واقفًا اكرامًا لهُ ووقف التلامذة
دامرّ في ادنهِ كلمتين ثم خرجا من المدرسة ووقفا امام الباب
ن حيث اتى ودخل المعلم وقرع الجرس وقال للتلامذة
ـوا يمنة ولا يسرة ولا تتأخروا في الطريق وقولوا لاهاليكم
صعة ايام وخذوا كتبكم معكم
كتابهُ او كراستهُ وتكتفوا وخرجوا في صف واحد ثم
ولم يكادوا يصلون الى بيوتهم حتى وجدوا فيها حركة غير
ين للمجيء بهم وقابلهم امهاتهم بلهفة وادخلنهم حالاً الى
معن القليل من تيابهم و يرزمنها
أل الكبار منهم اباءهم وامهاتهم عن سبب هذا الاضطراب
وهي تقول لاخيها "همس قتِل مسلم و بدهم يقتلونا كلنا"

امسكت امها بكتفها وهزتها وقالت لها اسكتي يا مصدومة

ما ارهب تلك الساعة وما تحمله من النفوس . خوف موجة من الارامل والايتام الذين نجوا من المذابح وقصدوا بيروت للاحتماء بها . خوف من النساء اللواتي ذبح رجالهن اولادهن امام عيونهن . الوف من الصبيان والبنات الذين نجوا مع امهاتهم وساروا يوماً بعد يوم مشياً على اقدامهم الى ان تبلغ بلاد الامان . مئات من الرجال الذين ساعدتهم الاقدار على النجاة وعلى كل منهم ان يعول عائلتين او ثلاثاً من عيال حوتهم الذين ذهبوا ضحايا السياسة والطمع . كل هؤلاء التجأوا الى مدينة بيروت وهم يحسبون انهم نجوا من كل خطر وفي ساعة واحدة رأوا سيف النقمة مسلولاً فوق رؤوسهم فتصوروا المشاهد الفظيعة التي مرّت بهم منذ شهر او شهرين ورأوا فيها اشلاء القتلى لم تزل تتحرك والدم يفور من جراحها وايقنوا ان نجاتهم كانت حلماً مرّ وانقضى وان السيف دهمهم لا محالة ولم يبقَ لهم مهرب ولا نصير . الجبل وراءهم محروق القرى والبحر امامهم يرمي ويزبد

مضى العصر ومالت الشمس الى المغيب وطالت ظلال البيوت والاشجار واكدرّ ماء البحر بعد صفائهِ وبدت تباشير الشفق فوق جبال ... وامتدت اشعتهُ من الشرق الى الغرب . الطبيعة ساكنة جامدة ولكن النفوس حائشة مضطربة

ماذا نعمل يارجل والى اين نذهب بهؤلاء الاولاد اولادنا واولاد اخينا واولاد صهرك ليس لنا مهرب الاَّ الى بيت ابرهيم فانهُ واسع ولهُ جنة كبيرة متينة ولا بدَّ ما يجتمع بهِ كثيرون من اهالينا واقاربنا فندافع عن انفسنا الى ان يفرجها ربنا

وبعد قليل جمعوا ثيابهم وساروا هي وزوجها وسلمتها وابنة عمها واولادهم الى ان وصلوا الى بيت الخواجه ابرهيم وهو من وجوه بلدهم وكان قد نجا مع الذين نجوا احتمى ببيت الست ثفة ثم هرب بعد المذبحة ورحل الى بيروت واستأجر بيتاً كبيراً فيها لانهُ كان على شيء من ثروة . ولما اتت اموال الاحسان جُعل وكيلاً على توزيعها فخصَّ نفسهُ بجانب كبير منها . اما الآن فهرب من بيتهِ الى بيت رجل من وجهاء بيروت لهُ بوابتان الواحدة داخل الاخرى هو احصن من بيتهِ وكان صاحبهُ مشهوراً بشجاعتهِ وبانهُ من امهر الرجال بلعب السيف لكنهُ كان قد هرب من بيتهِ والتجأ الى دار وجيه كبير من اكبر اغنياء بيروت فلما وصلها وجدها مملوءة بالناس الذين التجأوا اليها من النازحين ومن اهالي بيروت انفسهم والدار كبيرة ساحتها مرصوفة بالحصى الملونة ولها سور عالٍ على دائرها وفي وسطها حديقة غناء فيها من انواع الازهار والرياحين وفسقية كبيرة يتدفق الماء منها وعلى جانبي الحديقة بناءان فخمان

ـ الكبيرة الدالة على غنىً وافر ولا عجب فان صاحبها جمع ثروة
من التجارة والمرابحة لكنهُ شعر الآن بالخطر كما شعر غيرهُ فاخذ
الى سفينة بخارية كانت راسية في المرفإ ووافاهُ اليها اولاد عمهِ
نة وعزموا على السفر تلك الليلة تاركين الدار تنعى من بناها
، والرجال يعدون ما وجدوهُ من الاسلحة ليدافعوا بها الدفاع
، والى السيدة والاولاد سهروا مع والديهم الى ان غلبهم
كنهم وجالت نفوسهم في فردوس الاحلام يحلمون بالعابهم
س في تلك الليلة الاَّ عيونهم
ث احدهما الآخر عن حركة الامير بشير الاولى والثانية وعن
بنا التباريح ولكن لم يحلّ بنا مثل هذا الضيق ايذبحوننا ذبح
ولا احد يدفع وقد تخلّى الله عن شعبهِ واسلمنا الى يد الاعداء
يام كما انبأنا الجفر ولكن لا بد ما يأتي المسكوب من اقصى

د خراب البصرة وما نفعُ مجيئهِ الآن وقد اجتمعت طوائف
، بيروت
؟ ينزل رجال كسروان لخلاصنا اين يوسف كرم واين

يوسف كرم مخاوذ معهم ولكني لا احط بذمتي وعلى كل

ن الله على تلك الايام ولكن ما العمل والسن لهُ حق
تطيع رفع البندقية ولا يزال الرصاص في فخذي من ايام
لله علينا ولكن لا بد ما يجيء المسكوب قلبي يقول لي ان
نراها غدًا
وقال لهُ اين عساكر فرنسا التي وعدتنا بمجيئها فاننا لم نسمع
، عازمًا على النزول في البحر مع الذين نزلوا ولكننا لم نكتب
تريناها اخيرًا من الشهابيين واخاف ان يصيبهم شيء

مارون — احق يدك ولكن ذ صاحبه شيء وكـ ـة من معه اعطاه كما يعطيهم فماذا تنفع الحجج

نقولا — صحيح ولكن المال اعز من لروح واد تأخرت في المخزن حتى صفيت اشغالي وما وصلت الى البيت لا منذ ساعة ولولا ذلك لارمتني ام متري ان ترسل الى البحر مع الدين نزلوا

مارون — هل تظن ان فرنسا عدلت عن ارسال عساكرها

نقولا — كلاً ما عدلت ولكن الاكليريكيين وضعوا لها الف عرقولة لانهم لا يريدون ان تأتي وتأخذ البلاد وحدها

مارون — الله ينجينا من مناظراتهم و يصرفها على سلام

نقولا — اظن انها تنصرف فان القناصل اجتمعوا كلهم وذهبوا الى الوالي ودركوه بالمسؤولية واجتمع عقلاء المسلمين ونبهوا على الجهلاء في الجوامع ان لا يفعلوا شيئاً وقد سمعت الآن وانا داخل انهم قبضوا على القاتل وقتلوه ولكن الاشرار كثير ويقال ان العسكر معهم وهذا الذي يخوفنا . وارسل القناصل يطلبون مراكب حربية فاذا وصل ولو مركب واحد لزم الاشرار حدهم

مارون — الله كريم وكيف حال بخور وشمعون واخواتهم

نقولا — ما على قلبهم فان الوالي طمنهم بنفسه

مضى الليل بتباريحه واشرقت الغزالة وانعكست اشعتها عن وجوه صفراء لم تغمض لها عين وعيون غائرة لم يغمض لها جفن واطفال يبكون ويتضجرون طالبين كسرة خبز او شربة ماء ولم يكن الا القليل حتى اهتزت تلك النفوس طرباً كأنهُ بسلك كهربائي وجعل الالوف يستشرفون البحر او يصعدون على السطوح ليتمكنوا من رؤيتهِ وهم يقولون اتى اتى الله ينصرهُ الله ينصرهُ

في اقصى الشمال بارجة تشق سطح الماء وقد رفعت شراعها للنسيم واستعانت بما فيها من البخار يقودها الامل و يسوقها الواجب وكأن اله السلام اوحى الى ربانها ان قم على عجل واقصد مدينة بيروت فهناك مئة الف نسمة حياتهم معلقة بخيط من العنكبوت . فقام لا يلوي على احد واستعان بالرياح والبخار حتى اذا اشرف على المدينة جعل يطلق اكبر ما عندهُ من المدافع فاهتزت المنازل وتكسّر زجاج الشبابيك واخذت الدهشة قوماً والفرح آخرين . اخذت الدهشة رعاع القوم الذين يتوقعون الفتن والثورات لكي يطلقوا لنفوسهم المنحطة عنانها

واحذ الفرح العقلاء والفضلاء الذين يعلمون ان الفتن تنقضي
الحها
ساعة من الزمان وقال لهُ الحمد لله على انفراج الازمة . فقال
فقد اويت في بيتي ثلاثين عائلة من هؤلاء المساكين وكنت
وادفع عنهم الاشرار . اما لا افهم هذه السياسة سياسة واينا
شرع وفي اي سنة تحرّض الرعية بعضها على بعض — الله
خذوا الآن على ايديهم فقد جاء المسكوب وسبع دول ما وقفت
كسّر نصف الزجاج في شبابيك بيتي
كبير لم ارَ مثلهُ في حياتي مع اني سافرت الى قبرص والى
لوا بالقاتل
وقتلوهُ

نهُ لم ينكر انهُ هو القاتل — على كل حال انقضى الاشكال
سفّهت رأيهُ ووافقني اكثر اخواننا ولكن هذا الثرثارة ابا نخر
مة يحضرهُ الوالي في مجلسهِ وقال ان عندهُ كتابات من كل
عدون لاول اشارة حتى ينزلوا على بيروت فقلت للوالي سلمنا
لي حسب رغبتك فمن يخبرنا بعد ذلك من الفرنسوي والانكليز
رين على الاروام . فقال لي حلك يا حاج مصطفى حلك اما
ك ساكتًا نعم ان اهاليها ترسل الصدقات ولكن رجال الحكومة
لحالة الحاضرة لا بدَّ من تغييرها . وقد انصرفنا من عندهِ
ونبهنا في الجوامع حتى لا يصير شيء وقد أتت هذه الفرقاطة
ن ويجامل و يقول انهُ كان بادلاً غاية جهدهِ في حفظ الامن
يرال
السلام للفرقاطة
كن كان صوت مدافعنا مثل صوت الفقاعة
قضي الاشكال
ولكن الله يسترنا من عواقبها

وانفرجت قلوب الالوف من سكان بيروت واللاجئين اليها على اثر مجيء البارجة وسية وجعلوا يعانق بعضهم بعضاً ويهنئ بعضهم بعضاً بالسلامة وعاد كلٌّ الى منزلهِ

الفصل السادس والعشرون

الذهاب الى العرب

وصل الامير عبَّاس وزوجتهُ واولادهُ الى حاصبيَّا كما تقدم وخرج الامراء الشهابيون جالهم للقائهم الى سوق الخان ولم يقابلوهم باطلاق البنادق على جري العادة لان الامير عبَّاساً سل ينهاهم عن ذلك وامراءه حاصبيَّا نفسهم كانوا يحاولون ايقاظ الفتنة باية وسيلة كانت لكن رهم لم يجدهم نفعاً . ولما وصل الامير سعد الدين الى حاصبيَّا مرسلاً من قبَل والي دمشق مع الاموال الاميرية من الدروز قصَّ على الامير عبَّاس ما اشار عليهِ بهِ احد اصدقائهِ في شق وكان الامير عبَّاس يعرف هذا الرجل ويعرف انهُ واسع الخبرة شديد الفراسة فقال امير سعد الدين لا رأي لي بالاقامة بينكم بعد الآن ولا اظن انهم يضمرون لكم الَّا الشر، د دعاني الامير عمر الفاعور امير عرب الفضل اليهِ فاراى في تلبية دعوتهِ السلامة . ثم اخبر جتهُ واولادهُ بما عزم عليهِ فوقع الخبر على زوجتهِ وقع الصاعقة لانها كانت ترى البدو ين يشتون في ساحل بيروت وهم في حالة من القذر تشمئز منها النفوس فظنت ان كل دو مثلهم اما الاميرة سلمى فطربت اولاً لهذا الخبر لانها كانت تودُّ ان تقف على حال دو في قفارهم وترى معيشة نسائهم وبناتهم وتحقق باخبر ما قرأتهُ عنهم بالخبر . وكانت ب ركوب الخيل فتصورت نفسها راكبة مع اميرات العرب يجبن القفار وينشدن الاشعار لربت نفسها لذلك ثم تذكرت انها تبعد عن السرهنري وقد لا تعود تراهُ فخفق فؤادها سعد الدم الى وجهها ثم تقلَّص عنهُ فاصفرَّت وجنتاها وارتجفت شفتاها وجالت الدموع في بنيها فالقت جبينها على يدها وحاولت ان تنسى كل شيء حتى وجودها

وسرَّ اخواها بهذا السفر لانهما كانا يحبان ركوب الخيل ايضاً ولم يغتظ منهُ الاَّ امها م يوسف وكادت ام يوسف تعدل عن الذهاب معهم وودت ان ترجع الى كفرشيما او روت ولكنها لم تجد من يوصلها اليهما فعادت تندب زوجها واولادها وسلمت بالذهاب مع لاميرة هند مكرهة وهي لا تنشف لها دمعة

وكان الامير عبَّاس على وفاق مع الست نائفة اخت سعيد بك جنبلاط فارسلت معهُ ثنين من رجالها ليوصلاهُ الى عرب الفضل ويخبرا الدروز الذين يلتقي بهم في الطريق انهُ

سير شاقًّا كما ظنت الاميرة هند ونزلوا في الطريق على مشايخ
لوا المزار في جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر بخمس مئة فارس رامح
به وكانت عيونهُ مبثوثة في البلاد فاوصلت اليهِ اخبارهم قبل وصولهم
عباس ترجل الاميران وتصالحا فترجل الفرسان كلهم في اقل من
اد . ثم دنا الامير عمر من الاميرة هند وقبل يدها وعاد الى الاميرة
حة وقبَّل يدهُ بعد ان صافح بها يدها وكانت مسفرة عن وجه يخجل
لظبي وقد تورَّدت وجنتاها من هواء الصحراء ومما جاش في صدرها
دفق كالسيل المنهمر كأن الاخلاق التي غُرست في نفوس اسلافها
مل لم تزل من خلفائهم بل بقيت آثارها فيهم تظهر كلما حانت لها

في نحو الخامسة والعشرين طويل القامة ابيض الوجه اسود العينين
لى جاري عادة العرب ولا حدل شعر رأسهِ كما يفعلون لان اباهُ
فعلموهُ مبادىء العلوم وزار دمشق غير مرة وتزيا بزي اهلها وكان
الاحمر فوقهُ رداءٌ من الخوخ الرصاصي وعلى رأسهِ كوفية وعقال
يابهُ ورائحتهُ على انهُ عائش في نعمة ونعيم فسرَّت الاميرة سلمى

ب الفرسان لركوبهما وانشقوا شطرين فسار الامير عباس والاميرة
والاميرة سلمى وراءهما واخواها وراءهما ثم سائر الخدم والحشم الى
ن السهل قد لثم الجبل فصعدوا فيهِ بين المناهل والغدران وواصلوا
وصلوا الى مضارب الامير عمر فلقوا مئات من النساء بالمزاهر
وهنَّ ينشدن نشيد الترحيب ويقلن

هلا بالضيف امير شهاب عزيز ومهـابْ
سيوف الفضلْ وكل الفضل لآلـ شهابْ

نقولـ الدور والباقيات يرددن عليها على نقر الدفوف والمزاهر
ميرة سلمى ووقفتا هنيهة تسلمان عليهنَّ وتقولان مرحباً بالزَّينات
الفخار حتى اذا دخلتا الحلَّة وجدتا الاميرة عاتكة ام الامير عمر
ت على الاميرة هند مصافحةً واعتنقت الاميرة سلمى وقبلتها في

وجنتيها. وجلس الامرة وحدهم في مضرب كبير والاميرات وحدهن وقدمت لهم كلهم القهوة الجديدة وكؤوس الشراب ثم مدات سفرة الطعام وعليها اصناف مختلفة وكان عند الاميرة عائلة جارية تحسن الطبخ التركي فصنعت للاميرات من اطعمة واحلوى لم يأكلن اطيب منها

ولم يكن الامير عباس ضعيف البنية ولكن الترفه كثير والقطع منعه اضعفا جسمه صار لا يقوى على عوادي الادواء وكان اكل طعاما غير صحي وشرب ماء تصرق اليه لفساد وهو آت في الطريق او اثرت فيه حرارة الشمس واصابه مرض حرمه كل يتناول عشاءه حتى اصابه صداع شديد وكانوا قد اعدوا له مضربا خاصا فدخله وحالت نفسه فتقيأ ما اكله وحم واصابه شيء من الهذيان. واخبرت زوجته واولاده وكبار مصر وقد تولاهم لقلق ولما رأت ام يوسف التي قالت ان سيدي مسموم قالت ذلك همسا في اذني لاميرة هند خرجت تدعو الخدم ليأتوها بكثير من اللبن حتى تسقيه وفهم الامير عمر مرادها فاسودت الدنيا في عينيه وقال لها انا اكلنا معا من خروف واحد وعن صحن واحد وشربنا القهوة من اناية واحدة وانا شربت قبله. فاخذت تعتذر عن نفسها وقالت ربما يكون سيدي قد شرب شيئا او اكل شيئا في الطريق واتوها بكثير من اللبن لكن الامير ابى ان يشربه

وأرسل الامير عمر اربعة فرسان الى دمشق يستدعي طبيبا من امهر اطبائها

واشتدت الحرارة على الامير عباس الى درجة لا تطاق حتى كاد يشتعل ثم انحطت سريعا وجعل يشكو من ضيق النفس والعطش الشديد وجعل جلده يجف ثم يتندى بالعرق واليك ونبضه يسرع ثم يبطئ وازرق وجهه وعنقه وانقبضت حدقتاه ثم اتسعتا واصابته شنجات صرعية وعقب ذلك سبات عميق

وكان في القبيلة شيخ كبير مارس صناعة التطبيب من غير معلم ومن غير كتاب دقيق ا يعرفه عن ابيه وجده ومضيفا اليه ما عرفه بالاختبار فاستدعاه الامير عمر حالا وصب الماء الكثير على رأس الامير عباس قائلا ان ما اصابه ضربة شمس. ورأت الاميرة هند ان ما قاله الرجل صواب لان الشمس كانت حارة وكان نورها ساطعا جدا حتى اضطرت ن تسدل نقابها على وجهها اكثر الطريق ولم تخف حرارتها بعد غيابها فاذنت لهم في صب الماء لى رأسه وخالفتها ام يوسف في ذلك وهي تقول ممنوع يا ستي ممنوع اسمعي مني واسقوه لبن وزلال البيض لكن الاميرة هند لم تصغ اليها بل امرت بصب الماء وكان ماؤهم باردا ن الارض جبلية فانتعش الامير عباس قليلا ثم عاودته الحمى واسلم الروح

الفصل السابع والعشرون

المأتم

تمرُّ الرزايا بالمرء فيراها عن بُعد ويستعظمها قبلما تصل اليهِ ويظن انها اذا وقعت بهِ ضاق بها ذرعًا لاسيما وانهُ يعظّم امرها في غيرهِ ويعجبُ من صبرهم عليها ثم اذا حلّت بهِ فالغالب انهُ يصبر عليها ويجري معها كأنها امرٌ عاديٌّ وقع لهُ لان الامل بالنجاة منها يخفف وطأتها ويحلي مرارتها. ولكن اذا جاء المصاب الاكبر ونفذ سهم القضاء وانقطع الامل من البقاء وخطف الموت عزيزًا ورأى المرء امامهُ رزيئة لا يمكن دفعها ولا منعها نفد صبرهُ وغاض ينبوع املهِ وضاقت بهِ الحيل وارتدَّ دمهُ الى قلبهِ فلم يعد يغذي دماغهُ لتذكيرهِ بالمواعظ والحكم. فيسمع منك اقوال التعازي ويقول سمعتُ وفهمتُ ويكون قد سمع وفهم ولكنهُ لم يعِ شيئًا — حالة لا يتصورها الاَّ من وقع فيها ورُزئَ بفقد عزيز ولاسيما اذا كان سندهُ الوحيد ومدبر امرهِ

هذا ما اصاب الاميرة هند واولادها وهي غريبة نزيلة على قوم من البدو في بلاد لم تطأها قدماها من قبل وبين اقوام لا تعرف احدًا منهم

كان زوجها يعرف الامير عمر ويعرف اباهُ وقد حارب معهُ كتفًا لكتف في عهد ابرهيم باشا لكن ذلك كان قبل ان اقترنت بهِ. وكان الامير عمر يواصلهم بالهدايا ولكنها لم ترَ صورتهُ الاَّ ذلك اليوم فلم تكد تأنس بهِ وبامهِ حتى وقعت بها هذه الضربة الاليمة

وقد عاشت مع زوجها نحو عشرين سنة على تمام الهناء والصفاء وكانت تهتم بهِ اكثر مما يهتم النساء بازواجهنَّ عادةً لان معرّفيها غرسوا في ذهنها انهُ هالك ولا بدَّ لها من ان تجاهد جهادًا مستمرًّا في الصلاة لاجلهِ. فاكثرت من الصلوات والنذور في السنة الاولى والثانية ثم رأت ان زوجها افضل سيرةً وسريرةً من كل الذين تعرفهم حتى من رجال الدين وسمعت مرةً واحدًا يتلو آيةً من التوراة مفادها ان كلَّ من يعمل البر فهو مقبول لدى الله مهما كانت امتهُ فانجلى لها وجه الصواب وقالت ان الله لا يأخذ بالوجوه بل الناس لديهِ حسب اعمالهم ونياتهم. وكانت لا ترى من زوجها الاَّ العمل الطيب والنية الصالحة على ما فيهِ من الرزانة والوقار ومجادلة الناس بالحسنى حتى ان المطران كان يسرُّ بحديثهِ ولا يُسمعهُ كلمة تغيظهُ فزالت التشكوك من نفسها ومنعت القسوس عن الكلام معها في امر زوجها. ثم لما كبر اولادها اتجهَ همها كلهُ الى تعليمهم وتهذيبهم فلم تعُد تهتم بالخلاف الديني الذي بينها

وبينهُ وما يحسّ بهِ فكان ... فلما ... فلما رأتهُ الام مشروحاً على ... لاحت ... فتحت يدهُ وجعلت تناديهِ وتكنّيهِ ثم تلبثهُ عواصفها واسودت الدنيا في عينيها وسقطت مغشيًّا عليها

وتلهّب الحزن الاميرة سلمى وجنّب ... وسمعها موّنت شديدة لكل من تكلم معها حتى وقعت على الارض وشرحت رأسها على صدر ابنها وهي تبكي وتقول يا بني يا بني . وفاضت الدموع من عيون اخوتها وجعلا يبكيان ويتحيران وقد قام كلٌّ منهما في ناحية من المضرب

ووقف الامير عمر حائرًا في امرهِ رأى هذا المشهد وسمع ما سمع ينتابهُ الاكمداد وعروقت عيناهُ بالدموع ولكنهُ لم ينسَ هول الموقف وما يطلب منهُ ويطالب بهِ موقف يفكّر في امرهِ وجلست ام يوسف على الارض وقد غلبها الحزن فلم تحاول سلب على جاري عادتها وانها كانت من النادبات الشهيرات ولكن حزنها شديد يكم لا نسبة

وعلا البدر فتقصرت ظلال المضارب واشتد حلكها بالنسبة الى النور الذي حولها ونبحة الكلاب من كل ناحية فانقطع عواء الذئاب خوفًا ورهبةً . وركت جمال ورغت اتيران والاغنام تجترُّ وتلوك جرتها على مهل ووقفت الصدمات الجياد تعمض جفونها ثم تفتحها كلما مرَّ خفّاش من امامها . وخمدت النيران امام المضارب وعلا تنبق الضفادع من حواب العدران حيث تظللها اغصان الصفصاف والبان فامتزج بهِ خرير الماء امتزاج لحسيني بعتيران . واجتمعت الخفافيش على اشجار الاجاص والزعرور تختصم وتصيح ولكنها لا تنتش من الحجاج اسجح لانها تكتفي بالكفاف من الطعام ولا تفعل فعل ابن آدم الذي لا يكتفي شيء بعضهُ يطمع بما في يد غيرهِ ويجور على ابناء نوعهِ

ودخل الامير عمر مشورهُ وجمع رؤساء عشيرتهِ الادنين ونصّ عليهم ما حدث ولاحظ فقال ان اباهُ كان متآخيًا مع الامير عباس من عهد ابرهيم باشا إحاء الدم[1] وقد اوصاهُ ابوهُ قبل وفاتهِ ان يحسب الامير عباسًا عمًّا لهُ ويبرَّ بهِ بر الاب بابنهِ وانهُ استدعاهُ اليهِ الى جبل عجلون لما علم ان في النيَّة قتل امراء حاصبيا واللاجئين اليهم ولكن يظهر انهُ كان مريضًا فاثّرت فيهِ الشمس وقتلتهُ والطبيب يقول انهُ مات من ضربة الشمس ولا بدَّ من ان يطالبهُ الشهابيون والحكومة بدمهِ قبلما تنجلي لهم الحقيقة ولكنهُ واثق ان الاميرة هند وابنتها الاميرة سلمى تقرران الحقيقة وهي انهُ وصل المضارب متعبًا ثم اكل من الطعام الذي اكل منهُ ولداهُ واصحاب المنزل واصيب بعد ذلك بصداع شديد وحمّى وقضى نحبهُ قبل ان يشرب دواء . قال

(١) ان يجرح كلٌّ منهما يدهُ ويمصّ كلٌّ واحد من دم الاخر

وقد احضرتكم الآن لاستشيركم في امرين الاول ان الامير عباساً كان مسلماً فهل ندع الامام يغسلهُ وندفنهُ مسلماً والثاني هل ندعو رؤساء العشائر كلهم ونقيم لهُ مأتماً يليق بهِ . قال ذلك واوماً الى شيخ كبير السن شيبت الايام رأسهُ ولكنها لم تحنِ ظهرهُ كأنهُ يطلب منهُ الجواب على سؤاليهِ

فقال هذا الشيخ اما عن الامر الاول فالرأي عندي ان نستشير زوجة الامير ونعمل بقولها ولاسيما اذا وافقها عليهِ اولادها واما الامر الثاني فواجب الضيافة وعهد الاخوة بين الامير المتوفى وبين المرحوم ابيك يقضي علينا ان نحفل بمأتمهِ كما احتفلنا بمأتم ابيك

ووافقهُ سائر الرؤساء والمشايخ على ذلك وللحال نادى الامير عمر بالسعاة وبعث معهم الى كل احياء قبيلتهِ وعيَّن وقت الدفن عصر اليوم التالي واعطى الطبيب حنجراً من عطر الورد حتى يصبهُ في الماء الذي يغسل الميت بهِ فيمنع فسادهُ . واوصى مدبر بيتهِ ان ينحر مئة خروف وعشرة جمال ويطبخها كلها غداء للجموع التي تحضر المأتم وان يطبخ معها عشرين قفة من الارز ويخبز ما يكفي ثلاثة آلاف نفس ويفعل كما فعل في مأتم ابيهِ بحيث تكون مضارب طبخ الطعام مفصولة عن المضارب التي يقام فيها المأتم ولو لم تكن الارض سهلاً كما كانت حينئذٍ

واتمَّ هذه المهام كلها بما لا مزيد عليهِ من السرعة وعاد الى المضرب الذي فيهِ الميت وكانت امهُ قد جلست الى جانب الاميرة هند تشاركها في البكاء والنوح ووقف خدم الامير خارجاً يبكونهُ ويندبونهُ ولا سيما مربي اولادهِ وكان رفيقاً لهُ في صباهُ وشبابهِ وشهد معهُ المواقع التي حضرها وقضى عمرهُ عزباً منقطعاً لخدمتهِ وخدمة اولادهِ فتعر الآن كأنهُ فقد ركنهُ الوحيد في الدنيا وجلس عند باب الخيمة يبكي سيدهُ ويعددهُ ويلوم الموت لانهُ لم يأخذهُ بدلاً منهُ . وجلست ام يوسف الى جانب الاميرة سلمى وهي تندب مرةً وتنوح أُخرى وبات الجميع على هذه الصورة الى ان ثقل سلطان الكرى على الاجفان ولجَّ الامير عمر على الاميرة هند واولادها لينهضوا ويناموا في مضاربهم مؤكداً لهم انهُ يتولى حراسة الميت بنفسهِ

وقد يُظن لاول وهلة ان مضارب البدو خالية من كل وسائل الراحة والرفاهة ولكن ليس الامر كذلك لان امراءهم على ثروة واسعة وهم يترددون على المدن القريبة منهم ويقتبسون ما فيها من الكماليات لا سيما وانهُ يزورهم رجال الحكومة احياناً وينزل بعض السياح عليهم ضيوفاً فيضطرون الى اقتناء الامتعة الفاخرة مما يلزم لراحتهم ولذلك تجد عندهم الفرش الوبرة مهيأة للضيوف ويقتنون الجواري المعتادات على خدمة اهل الرفاهة وبات الاميرة هند وابنتها في مضرب مبطن بالحرير على فرش وثيرة تغطيها دثر من الحرير والكتان ونام ولداها في

مضرب آخر متصل بهِ والمضربان الى جانب مضرب اه الامير

واصبح الصباح وسُوّمت الانعام واجتمع الحيامون فخاطوا مضرباً كبيراً من مضارب كثيرة لفقوها معاً وسمكوهُ على عمد عالية وشدوا اطنابهُ فكان منهُ قبة واسعة كقبة نجران ووضعوا الميت في نعش كبير مجلل بشالات الكشمير وصبوا لهُ دكة في وسط القبة وسرجوا اربعة من الخيول المطهمة ووقف السياس بها امام المضرب

ولم يمضِ ساعتان او ثلاث من النهار حتى انتظم عقد النائحات حول النعش وهنَّ مسدولات الشعور وقصَّ بعضهنَّ شعورهنَّ وطرحنها عليهِ اكراماً للميت وجعلت ام يوسف وامرأة من البدو تتباريان في انشاد ابيات الندب والرثاء والنادبات يرددن اقوالهما والاميرة هند والاميرة سلمى لا تكفان عن البكاء حتى تقرّحت اماقهما

واعدوا نعشاً آخر يمثل نعش الميت وجعلوا فيهِ حجارة كبيرة وجلدوهُ بشيلان الكشمير وجعلوا يحملونهُ ويرفعونهُ فوق رؤوسهم ويطوفون بهِ حول قبة الماتم والجياد الاربعة ماشية امامهُ وعلى جانبي كل جواد رجلان معهما سيفان مسلولان فوق ظهر الجواد ورجل ثالث يقودهُ ووراء النعش شاعر يعددهُ وباقي الرجال يرددون ما يقول ومن ذلك قولهم

يا سيّدي ويا سنجق كل القول لك يلبق
لما شاعت أخبارك الشركا لبست الازرق

وقولهم

يا سيّدي ويا ابن دلال يا رمح الشكل بالمال
قالت السيف خبوني لغير سيّدي لا تعطوني
اين الكان ينقلني ويرخي بنودي عالشروال

وكلما اقبل فريق من قبائل العرب وقف في اول الميدان هنيهة ونادى بصوت جهوري معدداً مناقب الميت ثم تناول النعش من حامليهِ وطاف بهِ حول القبة على ما تقدّم واستمرّ على ذلك الى ان يصل فريق آخر ويتناول النعش منهُ ودام الحال على هذا المنوال الى ان تكبّدت الشمس السماء

وكان رؤساء القبائل جلوساً مع ولدي الامير في مضرب كبير تجاه قبة النعش يدخنون التبغ ويشربون القهوة فلما بلغت الشمس الهاجرة جاء الخدم واخبروا الامير عمر ان الاسمطة مدّت للطعام في مضارب الرجال وجاءت الجواري فاخبرنَ امهُ بمدها في مضارب النساء فنهض الامير ودعا رؤساء القبائل وسار امامهم فجلس نحو مئتي نفس من الرؤساء دفعةً واحدةً ولما شبعوا جلس مئتان غيرهم وهلمَّ جرًّا الى ان بلغ عدد الآكلين اكثر من الفي نفس

والاميرة سلمى فاكتنا مع ام الامير عمر في مكان
عامًا

فن عائلة الامير عمر في سفح ذلك الجبل ودفن فيهِ
ة الكبيرة وودعت الجماهير الامير عمر وابني الفقيد
لى مضاربهِ مضيَّع الرشد لا يعلم ماذا يفعل
افواجًا افواجًا كل يوم يعزون ولدي الامير بكمهم
يل ولما انقضت الثلاثة الايام وثلاثة بعدها جلست
) اولادها وجعلوا ينظرون في ما يحسن بهم عملهُ في
رة الامير عمر ورجالهِ او يبقون عندهم الى ان تنجلي
اميرة سلمى وكان لها الرأي المعلَّى ان الفتنة لا تزال
ق بنا ان نكلّف الامير عمر الذهاب اليها في هذه
خر فصل الخريف وحينئذٍ يرحل الامير عمر من
ان يوصلنا الى دمشق . وقلبي يحدثني ان قنصل
نا ويرسل الينا من يردنا الى بيروت ان لم يأتِ هو
كليز لانهم ينقلون لهم البريد بطريق البر الى خليج
في هذا الموضوع لما زارنا آخر مرة

فانتِ تعنين السرهنري الذي زارنا مع ابن
ين انهُ يبحث عنا وكيف يستطيع ان يهتدي الينا
ان . ولنسمع ما يقولهُ اخواكِ وصبيهما

عند الامير عمر الى ان يفرجها ربنا . واما صبيهما
ار الامير احمد وهو يدبر طريقة لحمايتهم وكادت
الاميرة سلمى رفضتهُ ووافقها اخواها لانهما كانا
تّعِ

ها وبين الاخوين وصبيهما واخيرًا قالت الاميرة
الرمان الى ان يفرجها الله فاننا لم ر من الامير عمر
لا اظن انهم يسمحون لنا بالرحيل عنهم الآن ما

يرني اولادهم و يذهب بهم الى المدرسة

دامت التلاقي قائمة في جبل لبنان وكل البلاد مجاورة له

ودنا اخواها من امهما وحنا يقبلانها ويتوسلان اليها ان تبقى هنا وتحرس ترة والدهما فقبلت ان ترحل مع الامير فخرجت وقد ان عيني الاميرة هند لما قال ولداها ذلك وصمتت هنيهة ثم قامت مثم يريد ان تقول شيئاً بل عزم ان يرسل رسولاً يخبر الامير حمد كيف كانت حال وكان الامير حمد يكرمها ويواصلها بالهدايا واعطاها مرة خنجر محلًّى بالذهب والماس من عمل بلاد اسبكرة فقصد استمالته اليه حتى يمدحه امام الاميرة سلمى كما ذكرنا سابقاً. وبدا له ان تسير الى البلاد هاربي لوحش شرًّا وكانت الظنون قد خمدت نفسه قبل الآن واسمع الامير حمد ما يسرّه كلمة خاف ان يطلب من الامير عمر ارسال الرسول لئلا يرتاب ذلك ويعاتب الاميرة هند فعزم ان يتصاحب مع غيره من الامراء ويرسل رسولاً من رحالهم

وألفت الاميرة سلمى الاميرة عاتكة ام الامير عمر وجعلت تجلس في مجلسها ساعة بعد ساعة تسمع منها اخبار العرب وقصصهم عن الجن والغيلان وحروب والغزوات واخبار اخواها بخرجان مع الامير عمر للصيد والقنص وطابت لها الاقامة هناك لما لاقت هند وسوحشت كثيرًا لبعد كل اقاربها عنها

الفصل الثامن والعشرون

خطر غير منتظر

مضى على قبائل العرب اكثر من اربعة آلاف سنة من حين ورد ذكرهم في التاريخ لمكتوب والمنقوش وهم رُحَّل يعيشون بالغزو والنهب وتربية المواشي وحمل متاع تجار ولم تتغيّر حالهم

قامت ممالك اشور وبابل وصور وصيداء ومصر والنوبة وابيعت ثم سقطت وتقرضت يقام اليونان والرومان ودوّخوا المعمور ثم زالت دولهم. وخرج من العرب امم لمعوا في سوحهم لب الهند والصين شرقًا واطراف اوربا وافريقية غربًا ولكن اهل البادية اقيموا فيها ثبتوا على داوتهم لهذا العهد يعيشون في الخيام ويضربون في انتجاع الرزق ويغزو بعضهم بعضًا كما كانوا يفعلون منذ الف سنة والفي سنة . وقد يظن ان بداوتهم هذه على تأصّلها فيهم وتمكنها من بروقهم تفارقهم اذا خالطوا اهل الحضارة ورأوا فيها من الرفاهة ما ليس في البداوة لكنهم لم يروا في البلاد التي حولهم لهذا العهد ما يرغبهم في الحضارة فبقوا بعيدين عنها ما امكن

ولما لم يكن لقبائل العرب وازع سام يقضي بينهم تراهم يلجأون دواماً الى اخذ ثارهم بيدهم وهذا هو السبب الاكبر لما يقع بينهم من العدوان

وكان بين عرب الفضل وعرب بني صخر ثارات قديمة واتفق ان عرب بني صخر انسوا الضعف من عرب الفضل او حرّضهم محرض على غزوهم لكي يضعف الفريقان معاً فشنوا الغارة عليهم وبلغ الامير عمر ان بني صخر زاحفون عليهِ فجمع رجالهُ في سفح جبل عجلون وكان هناك سهل فسيح يبتدئ بوادٍ عند اسفل الجبل ثم ينتشر شمالاً وجنوباً وشرقاً وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وترك النساء والاولاد في الجبل ومعهم نحو الفين من الرجال لحمايتهم واراد ابنا الامير عباس ان يخرجا معهُ للقتال فمنعهما واوصى امهما ان لا تدعهما يخرجان من مضربها واكد لها وللاميرة سلمى انهُ يعود فائزاً مساء ذلك اليوم لان رجال بني صخر لا يقاسون برجالهِ

وخرج هو في مقدمة جيشهِ وكان رجالهُ مسلحين بالسيوف والرماح ومعهم نحو مئتي بندقية من البنادق القديمة ذات الزناد فلما توسطوا السهل رأوهُ يموج بفرسان العدو فتقدم فارس منهم براية بيضاء ومعهُ رسالة الى الامير عمر مفادها ان يسلم للامير حسّان امير بني صخر الرجلين اللذين قتلا ابن خالتهِ ويردّ لهُ احمال الابن التي نهبها رجالهُ من قافلة كان فيها عشرون جملاً لبني صخر على كل جمل منها نصف قنطار من البن ويسلم لهُ الامير عباساً واهلهُ ليحميهم عندهُ لان بني صخر اولى بحمايتهم من عرب الفضل

فقرأ الامير عمر الرسالة وقال للرسول قل لمولاك ان الرجلين اللذين قتلا ابن خالتهِ انما قتلاهُ بثار قديم لهما عندهُ وان العرب الذين نهبوا القافلة لم يكونوا كلهم من عرب الفضل ولا هم فعلوا ذلك بامرهِ ولا رأى الابن الذي يقال انهم نهبوهُ وان الامير عباساً رحمة الله عليهِ لجأ الى حماهُ واوصاهُ زوجتهِ واولادهِ قبل وفاتهِ وهو وحدهُ حامي الديار في تلك الديار عرب صخر معتدون عليها واوطانهم بعيدة في البلقاء وهو يطلب منهم ان ينكصوا على عقابهم ويعودوا اليها فيعود عنهم ولا اشبع غربان الجو ووحوش البرية لحومهم

فرجع الرسول واخبر مولاهُ بما سمع فالتفت الى الذين حولهُ واخبرهم بمراد الجواب فاشرعوا رماحهم وقالوا لهُ مُرنا بالهجوم عليهم فقال هلموا يا شجعان العرب واستلّ سيفهُ وهمّ بالهجوم معهم فمنعهُ رجالهُ واقسموا عليهِ ان لا يهجم ما لم يبرز لهُ الامير عمر لكن رجالهُ وشّموا الاسنّة واطلقوا الاعنّة فالتقى الجيشان كانهما جبلان ودار الطعن والضرب وكانت الشمس قد علت عن الافق وارسلت اشعتها في وجوه عرب الفضل فكادت تعمي ابصارهم .

وانفصلت كتيبة من بني [illegible] جاهم . وحمل الفرس وشدت [illegible] للامير حسان فشدوا عليه [illegible] فرسانهم يستحثون [illegible] واخذوا فيهم لا لامهم [illegible] الشمس كادت تغيب [illegible] فرسان بني [illegible] ويفرون في اقفيتهم وصعد فريق [illegible] من فيها وفي جملتهم امه والاميرة هند وولادها وحشوة و جهة البلتاء

ولما بلغوا السهل التف حولهم فرسان بني [illegible] رجاله يلمّ شعثهم ويحميهم ليعاودوا الكرة بجمع [illegible] اسرامه والاميرة هند واولادها فصار الفضة في عينيه ضلالاً و هذا يومكم يا عرب الفضل النار ولا العار من منكم [illegible] بين العرب الى آخر الدهر وقد مالت الشمس الآن وما يبقى [illegible] والطعان . ثم اشار بيديه الى الاعداء وهجم عليهم هجمة منكرة ويسرة حتى دنا من الفرس الذي عليه امه وكاد يختطفها من سرجه فسقط واجتمع رجاله حوله يدافعون عنه فسرع الفارس اليه وابعدا عنه . ولم يكن الا دقائق قليلة حتى عاد الى صهوة حصانه وكانوا قد اطبقوا عليه من كل ناحية وسددوا في وجهه سنابك الخيل بيعت فيها الارواح بيع السماح ونزل الامير عن [illegible] اسود يحمي ظهره لكنه لم يستطع استرجاع الاسرى مع كل ما استبساله فزادت نخوتهم واستقتلوا كلهم ولكن اجتمع عليهم الاعداء ومضت ساعة لم تر تلك البطاح مثلها من عهد العماليق ان الكثرة غلبت الشجاعة وان شمل رجاله قد تمزق فعزم ان يرجع بهم تلك الليلة

الفصل التاسع والعشرون

خيبة الامل

وصل السر هنري الى صيداء وبات عند قنصل الانكليز واخبرهُ انهُ ذاهب الى حاصبيا فقال لهُ القنصل ان حاصبيا والقرى المجاورة لها امست رماداً وقتل اكثر رجالها ووصل الفارون من النساء والعجائز الى هنا وهم في حالة يرثى لها. فطلب منهُ السر هنري ان يريهُ بعضهم فارسل القنصل قواساً من قواستهِ فجاءهُ بشيخ طاعن في السن فقصَّ عليهِ ما جرى من اول الفتنة الى ان جُمع الرجال في السراي وذُبحوا ذبح الغنم. فسألهُ السر هنري عن الامراء الشهابيين فقال لهُ انهم قتلوا ايضاً فسألهُ عن الامير عباس فقال لهُ انهُ رحل الى عرب الفضل في جبل حوران منذ عشرين يوماً او اكثر

وطلب السر هنري من القنصل ان يسير بهِ الى حيث يقيم المهاجرون من اهالي حاصبيا والقرى المجاورة لها لكي يراهم فسار بهِ الى الخانات التي كانوا مقيمين فيها فقابلهُ النساء بالبكاء والعويل ورأى مناظر تفتت الاكباد فتداول مع القنصل في امرهم ثم مضى وقابل المتسلم واسمعهُ من الكلام امرَّهُ واستأجر سفينة كبيرة ليُرسل بها المهاجرون الى بيروت وارسل معهم القوّاس الذي اتى معهُ وكتب الى الكولونل روز يخبرهُ بما سمع ويستأذنهُ في السفر الى جبل حوران وارسل الكتاب مع رسول وقام يطوف في صيداء ليرى مبانيها القديمة فرأى خان الافرنج وقلعة البحر وصعد الى قلعة الملك لويس ورأى ابراجها وما فيها من المدافع المصرية الباقية بها من عهد ابرهيم باشا فاعجبهُ منظرها وخرج الى خارج المدينة من عند الميناء القديم ورأى سكة الحلازين البحرية التي كان الصيدونيون يستخرجون الارجوان منها. وركب في اليوم التالي وذهب الى ضواحي المدينة وزار بيت لادي استير ستانهوب واستقصى اخبارها من بعض الذين عرفوها وعاد عند الظهر الى المدينة فوجد الجواب من الكولونل روز ينصح لهُ فيهِ ان لا يوغل في البلاد ما دامت الفتنة قائمة قاعدة ويؤكد لهُ ان الامير عباساً فعل عين الصواب برحيلهِ الى عرب الفضل ولابدَّ ما ينزل هناك على الرحب والسعة لان الامير عمر اميرهم من اكرم امراء العرب ووسائل الراحة والرفاهة متوفرة لديهِ. قال الكولونل وقد زرتهُ منذ سنتين واقمت عندهُ ثلاثة ايام فرحَّب بي واكرمني غاية الاكرام ووجدت عندهُ كل وسائل الراحة التي يمكن ان توجد خارج المدن ولو كنت اعلم ان الوصول اليهِ سهل لاشرت عليك بالذهاب اليهِ من غير تردُّد اما والاحوال كما ترى فليس من الحكمة ان تخاطر بنفسك لاسيما وان خصومنا قد

ينسبون ذهابك لغاية سياسيّة ولا يخفى عليّ استعمل بائث وكن ما كل والصبر مرٌّ ولكن ثمرتهُ حلوة كما يقول المثل الفرنسوي . وما دام الاميرة " الفضل فلا خوف عليهم . وبعد شهر او شهرين نرى كيف تتصرف هذه من المحال . ولقد اسفت جدًّا لما اصاب هؤلاء المساكين على ما وصفت تصل السفينة التي ارسلتهم بها اليوم او غدًا فيجدوا هنا بعض الراحة و

لما قرأ السر هنري هذا الكتاب رأى ان رجوعهُ الى بيروت ام الحاضرة فاستدعى الشيخ الذي رآهُ قبلاً وكان لا يزال باقيًا في صيدا عرب الفضل ومنازلهم وعدد رجالهم واوصاف اميرهم فقص عليهِ الشيخ انهم بطون كثيرة تنزل جبل عجلون والسهول المجاورة لهُ فتقيم في الجبل وهم نحو ستة الاف بيت . واذا خرج اميرهم الامير عمر الفاعور لغزو فارس وقد حاولت الدولة ادخالهم في طاعتها مرارًا فاخفقت لكنهم لا ما يظهر بل يكرمون رجالها ويهادون الولاة بالهدايا ويقصدهم التجار وي والصوف والغنم والجمال والخيل اذا لم تكن كريمة وقد يبيعون الفر او اكثر ويشترون من التجار الاقمشة المختلفة والتبغ والرز والبن وال النحاسية والحلى والاسلحة ويقيم الى جنوبيهم بنو صخر وهم لا يقلون عن ذهبت اليهم في تجارة منذ عشر سنوات وكان معي ولداي

ولما نطق بهذه الكلمة اغرورقت عيناهُ بالدموع والقى رأسهُ على عض الصغير ثم كفكف دموعهُ وعاد الى الحديث فقال نعم ذهبت مع ولدي بين عرب الفضل وبني صخر لكن العدول من الطرفين اجتمعوا يوم وصول فاستبشر العرب بنا واشتروا كل ما معنا من البضائع واعطونا عنها بدلاً دوابنا ومعنا قطعان كبيرة من الغنم رزق الله على تلك الايام ياليتني من

فسألهُ السر هنري عن حال المعيشة في بيت امير عرب الفضل . فا اينما كانوا وقد ضافنا امير عرب الفضل في بيتهِ فاكلنا وشربنا مع رجالهِ يأكلون وحدهم وطعامهم الرقاق والرز المفلفل والخرفان والامير متأنق لهُ الحجال ويطبخون لهُ احيانًا مآكل تركية لان عندهُ الجواري السو المآكل التركية وعمل الحلويات وهم يكثرون من اكل الحلوى وعندهم ا من الجبل ويكون في شقوق الصخور العالية . وقد اكلت منهُ وهو اطيب

فقال لهُ السر هنري وكيف ينامون هل عندهم فرش مثلنا

فقال نعم عندهم فرش كبيرة محشوّة بالصوف الناعم وكثيرًا ما يزورهم كبار رجال الحكومة وينامون عندهم والهواء هناك طيب منعش فينام الانسان ساعتين كأنهُ نام الليل كلهُ فان كنت عازمًا على الذهاب الى هناك فاذهب ولا تخف فان كثيرين من السياح قد ذهبوا الى هناك وانا ذهبت مع جماعة من الانكليز الى مصر بطريق البر ومررنا على عرب الفضل وعلى كل العربان الذين في الطريق من هنا الى عريش مصر . نعم ان السياح كانوا ينامون في خيامهم ولكن امراء العرب كانوا يدعونهم للاكل عندهم فيجدون ما يسرهم

فاطمأن بال السر هنري من هذا الحديث وسلّم امرهُ لله وصرف الشيخ بعد ان ناولهُ صرةً من النقود وقام في اليوم التالي وعاد راجعًا الى بيروت

الفصل الثلاثون

البحث والتحقيق

لم يكد السر هنري يصل الى بيروت حتى وصل اليها فوّاد باشا الصدر الاعظم جاء ليصلح الحال من اقرب الطرق خوفًا من مداخلة اوربا وقد فُوّض اليهِ ان يفعل ما يرى فعلهُ لازمًا لاطمئنان الخواطر وارجاع الامن الى البلاد فقبض على والي بيروت والقاهُ في السجن وسجن معهُ بعض رجال الحكومة لكنهُ لم يفعل ذلك الاّ بعد ان جاءهُ كتاب قوي اللهجة من اميرال الاسطول الانكليزي الذي كان راسيًا تجاه بيروت وصف لهُ فيهِ الفظائع التي جرت وابان لهُ ان الامم الاوربيّة لا تستطيع السكوت عنها وانهُ اذا لم تبادر الدولة الى الاقتصاص من المرتكبين فالدول الاوربية متفقة على ان تتولّى هي بنفسها الاقتصاص منهم وارجاع الامن الى نصابهِ . واشار في هذا الكتاب الى ان اللوم الاكبر واقع على كبار رجال الحكومة الذين امروا بهذه الفظائع وتولّوا اجراءها

فوقع هذا الكتاب وقعًا شديدًا في نفس الوزير وصعد الى دمشق وقبض على واليها وامر بقتلهِ وقتل معهُ المأمور الذي كان في حاصبيًا وثلاثة من ضباطهِ ومئة وسبعة عشر جنديًا ونحو خمسين او ستين من الاهالي . وكان الذين قُتلوا من دمشق وضواحيها نحو ستة آلاف نفس

وسُئِل احد وجوه دمشق ليكتب محضرًا يصف فيهِ ما جرى لهُ وكان قد نجا من المذبحة فكتب ما خلاصتهُ

لما فشت الفتنة في لبنان والبلاد المجاورة له انصرفت الافكار الخبر بالاستيلاء على زحلة كان فرح عظيم وزينت الاسواق بالا كثيرون الى دمشق من البلاد المجاورة لها وامتلأت بهم كنائس معقودة بان الامير عبد القادر الجزائري يستطيع منع الفتنة وقد نذر فاطمأنت الخواطر وعاد الناس الى اعمالهم في السابع والثامن من شهر استبيحت الارواح ودخل الاشقياء البيوت والاديرة والكنائس وقتلوا والاعمى من السكان ومن اللاجئين اليهم من قتلوا المجذومين للتداوي فيها وحرقوا مكانهم

وكما فعل هؤلاء الاشقياء المنكرات فعل الفضلاء الصالحا والشريف اسعد حمزة والشيخ سليم العطار والشيخ عمر العالم وامثاله برجالهم ينقذون الناس ويمنعون الاعتداء عليهم تجددت الفتنة في اليو اليوم الثالث ودامت التشدة الى ان وصل الى دمشق والٍ جديد وا

وانا كنت نائمًا في بيتي فايقظوني صباح الاثنين في ٩ يوليو وا في المدينة فخرجت الى باب داري لاتحقق الخبر فرأيت الناس يتراكض قدوم قواس من قنصلاتو الانكليز لاني تابع لها وبعد قليل حضر قوّا عبد القادر اطلب منهُ رجالاً يوصلوني اليهِ فرجع القوّاس وحدهُ ثم اعطاهُ ستة رجال ولكن لم يمكنهم الوصول اليَّ لشدّة الازدحام وا فانتظرت آملاً ان يتسلحوا ويعودوا اليَّ وبينما انا جالس في انتظر داري وكسروهُ بالبلطات ودخلوا الدار الخارجيّة وجعلوا يطلقون الر فخرجت من باب صغير خارجي ومعي ابني وعمرهُ تسع سنوات وا والقوّاس واخذت معي مبلغًا من النقود لاستعين بهِ بدل السلاح وكـ من الثائرين ورأيتهم هاجمين عليَّ ارميهم بقبضة من النقود فيلتهون الى زقاق ضيق ظننت اني لا اجد فيهِ احدًا فاصل منهُ الى دار الا خاب ظني وهجم عليَّ رجالهُ ليقتلوني وضرب واحد منهم ابنتي ببلطة واطلق آخر عليَّ الرصاص مرتين فاخطأني وبادرني واحد ببلطة وأصبت بضربات كثيرة في جنبي الايمن ولم يعد الذين حولي يستطيعو لثلاً يصيب بعضهم بعضًا فقلت لهم اني ذاهب لاقابل حضرة البك محافـ

مصلحة كبيرة . فقال بعضهم هلمّ نأخذهُ الى البك فاخذوني اليهِ بعد ما سلبوا مني ساعتي وكل ما معي من النقود . وبينما نحن سائرون لحقنا درويش بعمامة خضراء وشعر مسدول وبيدهِ عصا طويلة في رأسها منجل كبيرة وكان يمدّها من فوق رؤوس الرجال ليحز بها رأسي . حتى اذا وصلتُ الى بيت المحافظ اخذني بيدهِ وصرف الناس عني ووضعني في بيت احد اتباعهِ مع القواس وكان قد صار العصر وليس في البيت الاّ امرأة عجوز والتفتُ فلم ارَ ولديّ ولا كنت اعلم ماذا جرى لزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها وكنت قد فارقتهم في البيت اما ولداي الكبيران فكان اولهما عند قنصل الانكليز والثاني في مدرسة الروم البطريركية ولم اكن اعلم ايضاً ماذا جرى لهما. واصعدوني الى غرفة عالية (قصر) تطلُّ على الشارع فرأيت منها المحافظ آتياً الى بيتهِ باناس كثيرين وعيالهم فاستغربت كيف يحمي هؤلاء في بيتهِ ولا يحميني انا فيهِ بل يضعني في بيت احد اتباعهِ وترجح عندي انهُ يقصد الايقاع بي ليلاً ولا يريد ان يقتلني في بيتهِ امام الجمهور فاخبرت القوّاس بذلك وقلت لهُ الاجدر بك ان تنجو بنفسك . فقال وانت ماذا تفعل فقلت لهُ اني انتظر حتى يخيم الليل وادخل بيت المحافظ فلا اظن انهُ يتجاسر على قتلي في بيتهِ وبيتهُ مملوء بالناس . فقال هذا هو الصواب ولكني لا افارقك الاّ بعد ان تصل الى بيت المحافظ وحينئذٍ اذهب واخبر الامير عبد القادر. فاستحسنت رأيهُ وانتظرنا الى ان خيم الظلام وحينئذٍ رأينا سبعة رجال جاؤوا وقرعوا الباب بعنف ففتحت لهم العجوز فسألوها هل فلان هنا فقالت نعم هو في القصر (الغرفة العليا) . فقلتُ دنت الساعة واشرت الى القوّاس لينجو بنفسهِ ويخبر عما حلّ بي . وبينما انا اكلمهُ بذلك صرخ واحد من الرجال قائلاً انزل يا فلان فانا صديقك السيد محمد السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي انقذك فلا تحتَ بأساً فنزلت اليهِ والبسوني برنساً كالمغاربة ومشيت بينهم وسرنا ندوس على القتلى في الازقّة حتى وصلنا الى بيت الامير وكان مزدحماً باللاجئين اليهِ لان الامير بقي ثماية ايام مسلحاً يطوف في الشوارع ويقذ الناس من القتل . ولما رأى السيد محمد السوطري ان بيت الامير مزدحم الى هذا الحد طلب منهُ ان يسمح لهُ باخذي الى بيتهِ وهو قريب من بيت الامير فسمح لهُ ومضى بي الى بيتهِ وسألني عن عائلتي فقلت لهُ ان ابني الكبير في قنصلاتو الانكليز والثاني في مدرسة الروم وكان معي ولدان ففرّقوا بيني وبينهما ولا اعلم ماذا جرى لهما وقد تركت زوجتي وطفلها في البيت . فقال اما ابنك الكبير فلا خوف عليهِ لانهُ لم يدنُ احد من قنصلاتو الانكليز واما الباقون فانا امضي الآن افتش عنهم وهم لا يعرفوني فقد يمتنعون عن المجيء معي فدع القواس يذهب برفقتي لاطمئنانهم

To: www.al-mostafa.com

وسألت السيد محمد كيف عرف ... فقال ... باب البريد ... المصرى لمع ... الباب ... فتوجه اليه ... استسلمين ... احيه معهم ليدفعهم عن مكاني

وفي تلك ... اثناي ... ثم اتى رجل تركي الى قصص الاكبير ... وكنت قد اسكنت المستر ... واحدة في بيتها ... وبقيت في بيت السيد محمد اسوطري حتى ... محمود افندي حمزة الى داره فاستأنست ... وبقيت في بيت محمود افندي الى ان حضر ...

وعادني السيد محمد الامين الشاعر المشهور ... الذي تراه . فقال سكت دلوكم وسبات ... عبركم فقال اهالي دمشق الذين معنوا كم هذه ... الكعبة المشرفة

الفصل الحادي والثلاثون

مؤتمر باريس

ما هذا الحر الذي يزهق النفوس حقًا ان باريس لا تطاق في ...

المتكلم مندوب روسيا والمخاطب مندوب انكلترا

فقال مندوب انكلترا — والحر عندنا شديد ايضًا على خلاف الحرارة التسعين امس

مندوب روسيا — التسعين ما هذا وكيف تحسبون درجات الحرارة

مندوب انكلترا — سيت انكم لا تحسبون الدرجات مثلنا . ان التسعين تعران فارنهيت تقابل نحو ٣٢ تيرمان ستغراد ولكني اشعر برطوبة هنا لا تشعر بها عندنا وعلى كل حال الحر شديد هنا ولا اظنهُ شديداً في بطرس برج

كلاَّ ولكنهُ يشتد احياناً كثيرة في فصل الصيف . الظاهر ان فرنسا تريد ان تفتح المسألة الشرقية من جديد

مندوب انكلترا — هل انتم من رأيها

مندوب روسيا — انتم تعلمون انهُ لا يمكن ان نكون من رأيها . ومولاي الامبراطور مستاء جداً مما حدث في سورية ولكنهُ يقول انهُ ان كان الحق في المداخلة لدولة واحدة فذلك الحق هو لروسيا لا لغيرها وقد وصلت بارجة من بوارجنا الى مدينة بيروت في الوقت اللازم فمنعت حدوث مذبحة فيها

مندوب انكلترا — نعم لعمر دلك ومولاتي الملكة شكرت لسفيركم لما لمعها الخبر لانها مستاءة جداً من هذه الحوادث وانتم مصيبون في قولكم انهُ لا يحسن بدولة واحدة ان تنفرد بالمداخلة اي بارسال جنودها الى تلك البلاد ولكن هل ترون من الحكمة ان ترسل كل دولة من الدول المتحابة فرقة من جنودها

ففكر المندوب الروسي هنيهة ونظر في وجه المندوب الانكليزي لعلهُ يقرأ فيهِ ما يضمر ثم قال لهُ كلاَّ ولكن لماذا نفصل فرنسا على غيرها اذا فعلنا ان تنفرد دولة واحدة بارسال جنودها

فقال المندوب الانكليزي نحن لا فرق عندنا فاذا اردتم فنحن نرسل جنودنا او انتم ترسلون جنودكم او ترسل جنود مسوية

فلم يحب المندوب الروسي على هذا الكلام بل بقي صامتاً يفكر في ارسال الجنود الروسية اذا امكن ولكنهُ يحسب ذلك ضرباً من المحال

وتكامل الاعضاء حينئذٍ ودارت المذاكرة بعد ان تليت عليهم تقارير القناصل كلهم وكان حاضراً في ذلك المؤتمر معتمد بريطانيا ومعتمد روسيا ومعتمد تركيا ومعتمد فرنسا ومعتمد النمسا ومعتمد روسيا ولم يسع مندوب تركيا ان يبدي شيئاً مما ذكرهُ القناصل

وبعد بحث طويل اقرَّت الاكثرية على انهُ لا بدَّ من ارسال جنود اوربية لارجاع الامن الى البلاد وتقرَّرت فرنسا بارسال ستة آلاف من جنودها وكانوا مستعدين للسفر عند اول اشارة فشكرها المندوبون على هذه المروءة . وقال مندوب انكلترا يجب ان نقرر ايضاً

ان هذه الجنود ذاهبة بعيد [illegible] من هذه السياسة الرشيدة وقد [illegible] المندوب الفرنسوي لا تقبول بذلك وقال هذا هو [illegible] الى ارسال جنودهم كما هو الشعنة وحسب وليس [illegible] ترسل جنودنا الى سورية

فقال المندوب الانكليزي ومفهوم بعض ان هذه الجنود [illegible] توطيد الامن فمتى توطد تعود مشكورة [illegible] ذهبت مشكورة [illegible] حينئذٍ وكان قد اوجس شراً من طلب مندوب انكلترا ان يكون كلها قائلاً في نفسه ان هذا يدل على انه متى وطد [illegible] الجنود تخرج من سورية حالما يتوطد الامن فيها فسرّ بعض المندوبين ولم يقل مندوب فرنسا شيئاً لان كلمة توطيد الامن [illegible] الكثير والمطل الطويل

وتذاكر اعضاء المؤتمر في امور شتى تتعلق بهذا الموضوع وساد عقدت بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ والحوا على مندوب الباب العالي حيث المساواة بين كل اصناف الرعية فقال لهم ان الباب العالي قد بتلك المعاهدة وسيبقى باذلاً اقصى الجهد للقيام بها

وختم المؤتمر وكان ابتداء اجتماعه في الثالث من اغسطس من الفرنسوية الى بيروت في السادس عشر منهُ اي بعد وصول فؤاد [illegible] في حرش بيروت نصبت خيامها هناك وانتظرت الاوامر . وحلت [illegible] كل مكان واطمأنت القلوب وراجت الاعمال لاسيما وان اموال كانت تنفق لاعانة المنكوبين . وجعل كثيرون منهم يعيشون وتصرّف الجنود تصرّف الكرام فكانوا يدفعون كل ما يطلب منهم طعامهم حتى ان الفقراء الذين كانوا لا يأكلون الا الخبز الحافت و الادام صاروا يأكلون اللحم الغريض مما يعطيهم اياهُ الجنود واكد القدية التي اعطوهم اياها وظهر كأن البلاد انتعشت بعد ما خيم عل

الفصل الثاني والثلاثون

الحيبة والقتل

رجع الامير عمر الى مضاربهِ كاسف البال يكاد يتتعل غيظًا وكانت الشمس قد آذ بالمغيب فترجَّل عن جوادهِ واجتمع حولهُ شيوخ قبيلتهِ وكان قد اصيب بجرح في ذر اليسرى فاتى المتطبب وغسل الجرح بالماء وحمي اداة من الحديد وكواهُ بها كأنهُ يع ميكروبات الفساد ورش على الجرح رماد خرقة محروقة وربطهُ والامير رابط الجاش لا يئ ولا يتكلم . ثم سأل الذين حولهُ عن عدد القتلى فقالوا لهُ زهاء مئتين وقد ابلينا بلاءً ح فقتلنا اكثر من ذلك . فامر ان يرسل من يهتم بحمل الجرحى ودفن القتلى وان يستر الرجال ساعتين من الزمان ثم ينهضوا ويلحقوا بالعدو حيث يبيت تلك الليلة

فقال لهُ رجل شيخ من رجالهِ ليس تيبيتهم من صواب الرأي لان الليل حالك الظلام و نصيب احدًا من اولاد الامير عباس . والرأي عندي ان ترسل نستنجد عرب عنزه فانهم استنجد مرتين في حياة المرحوم والدك فانجدناهم ونضرب موعدًا نهجم فيهِ على بني صخر من جهتين مختلفت فإما ان يثوبوا الى رشدهم ويردوا الأسرى و يصالحونا واما ان نخرب ديارهم ونمحو آثارهم

فقال رجل آخر وهذا ليس من صواب الرأي لان عرب عنزه ارتحلوا الى جهات الجز او هم على اهبة الارتحال ورأيي ان نرسل الى بني صخر نعرض عليهم افتداء الاسرى ثم نترقَّ الفرص للاخذ بالثار . وقال ثالث ان الامير حسانًا ان قبل بافتداء اسرانا لا يقبل بتسلي الاميرة هند واولادها ولا بدَّ ما يكون قد كتب كتابهُ الآن على الاميرة سلمى على جاري عاد

ولما سمع الامير عمر هذا الكلام صار الضياء في عينيهِ ظلامًا فنهض واقفًا وقال من منَ احواتهِ يسير ورائي ويحمي ظهري وعليَّ انا وحدي ببني صخر كلهم

ولكنهُ كان خائر القوى لكثرة ما نزف من دمهِ فارتجفت ركبتاهُ وكاد يغشى عليهِ فنا لهُ الطبيب تناول الآن شيئًا من الطعام حتى تسترد قوتك وبعد ذلك تنظر في الامر وشعر هو بخوران قوتهِ فاتكأ على عمود الخيمة واطرق وهو يكاد يتميز غيظًا من نفسهِ وه سوء طالعهِ لانهُ لو لم يعثر جوادهُ لردَّ الاسرى وقهر الاعداء ولولا اشعَّة الشمس التي اعم ابصار رجالهِ لما دارت الدائرة عليهم فكأنَّ التقادير كلها كانت معاندة لهُ . فالتفت ا الذين حولهُ وكادت دموع الغيظ تنفجر من عينيهِ وقال لهم لا بدَّ لنا من الراحة على كل حال فعلقوا لخيلكم واستريحوا قليلاً

[illegible] وحاول
[illegible] واتكأ
[illegible] فرادت
[illegible] يسمع في نجدتهم.
وخيل له انه سمع الاميرة تلح عليه وتقول له [illegible] هذا لولد الريم
ما كذا تفعل العرب الكرام. وسمع الامير حسان [illegible] ويهددها بقتل احدهما
ان ابت. فرتعدت فرائصه وحار في امره ولكنه لم يستطع لان سمى كانت قد تمكنت
منه وجعلت الاخيلة تتراءى له [illegible] وخيل له [illegible] شعل يخفي
رجاله ويحرضهم على الهجوم. وكان صوته يرتفع حتى سمعه جميع من في الخان وفي اقل من
لحظة يعاودهُ الجنون

وسمع خدمة هذه الخان فوقفوا وبدو الطبيب فدخل وحسن حالة مرضى الاعشاب
وسناه. علايتها وزع جزءًا من رحيقه ونضده فعرق عرقًا غزيرًا ثم نهض وحلع ثيابه وشرب
قليلاً من اللبن فاستعادت قواه ولكنه لم يستطع ان يصرف عن ذهنه تفكير سلمى والاميرة
هند واولادها لا لانهُ كان يخشى عليهم شرًا لان العرب لا يسيئون الى اسراهم ولا سيما اذا
كانوا من كرام القوم بل يحفظون لهم ليأخذوا فكاكهم ولكن لان كلام [illegible] سمعه عن
الامير حسان كان اوقع في نفسه من ضرب الحسام فجعل يضرب اخماسًا لاسداس ويوازن بين
الاساليب التي يمكن ان يسترد الاسرى بها ويغير عدوه من [illegible] فلم يرَ
اسلم عاقبة من افتكاكهم ولو بكل ما يتملكه. وقال في نفسه [illegible] كل شيء
الا انهُ يفضل المال على كل شيء فان انا اعطيته مئة جمل ومئتي حمل وخمس مئة جمل
فعل ما اريد فاشتري شرفي الآن بالمال القليل ومتى خرجت هذه الازمة يدبر الله. ثم
استدعى رجاله وقال لهم ما قولكم لو عرضنا الفداء على الامير حسان وجزلنا له العطاء.
فاجمعوا على انهُ ممن يشترى بالمال ولكنهم خافوا ان يصرح على بقاء الاميرة هند واولادها
عنده إما رغبةً في الاميرة سلمى واما طمعًا بان بني شهاب يفتدونها باغلى الاثمان

وبينما هم في الحديث دخلت ام يوسف وهي تصيح وتقول اين تهامة العرب يا امير عمر
اتترك ستي واولادها في السبي ارسلني الى بيروت حتى اخبر قنصل الانكليز فان الست سلمى
مخطوبة لامير انكليزي واذا عرف ما اصابها اتاكم بالف عسكري انكليزي

فكان لكلامها وقع عظيم في نفوسهم فاجلسوها وسكنوا روعها وسألوها عن قصة الامير

الانكليزي فاكدت لهم ان في دار قنصل الانكليز في بيروت اميرًا انكليزيًّا من اولاد عم ملكة الانكليز وهو حطيب الاميرة سلمى وقد سافر ابوها بها على غير علمهِ وانهُ لا بد وان يكون آتيًا الآن بالعساكر للتفتيش عنها . فطيبوا خاطرها وجعلوا يتداولون في ايصال هذا الخبر الى الامير حسّان

اما الامير عمر فصمت ولم يعد يتكلم لانهُ رأى انهُ ان كان ذلك ينجيهِ من خصم يكرههُ هو وتكرههُ الاميرة سلمى ايضًا فهو يوقعهُ في خصم آخر تحبهُ الاميرة سلمى ولا يمكن نجاتها منهُ فرأى ان الآمال التي احياها في فؤادهِ اماني فارغة واضغاث احلام فلم يعرف كيف يتقي النبال . فشلٌ وخذلان واسر وذل . ثم هو مضطر ان يحمل العار ليقذف فتاةً تكون لغيرهِ ولا يعود يراها في حياتهِ . فوجم ولم يعد يتكلم وظن رجالهُ انهُ كان يفكر في طريقة لانقاذ الاسرى من غير فكاك فصمتوا هم ايضًا ثم نظروا اليهِ يستوضحونهُ رأيهُ فقال وهو لا يدري ما يقول ارسلوا اعرضوا عليهِ الفكاك وخذوا من مالي خمس مئة جمل او اكثر حسب دواعي الحال واخبروهُ ان الاميرة سلمى مخطوبة لامير انكليزي وانهُ لا بد وان يكون آتيًا الآن بعساكر الانكليز ومدافعهم وهو يعلم ما حلَّ بهِ وبرجالهِ يوم خربوا عكاء . وان مسَّح الله لي في الاجل اخذت ثاري بيدي والَّا تركت تاري لكم لتأخذوهُ بعدي وقد عاودتني الحمى الآن ولا ادري ماذا اقول . ثم اتكأ على ذراعهِ واسند رأسهُ الى كتفهِ . وقام رجالهُ وتشاوروا ساعة من الزمان ثم ارسلوا ثلاثة منهم ومعهم رايات بيضاء ليعرضوا الفكاك على الامير حسان ويخبروهُ بقصة الامير الانكليزي

وكان قد وصل الى التبيلة شاعر دمشقي فنظم ابياتًا في واقعة الحال واسندها الامير عمر يعزي بها عما حلَّ بهِ ومنها قولهُ

تعزَّ فان الصبر بالحر اجملُ ... وليس على ريب الزمان معوَّلُ
فلو كان يغني ان يُرى المرءُ جازعًا ... لحادثة او كان يغني التذللُ
اذًا فالتعزي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر اولى واجملُ
فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامهُ ... وما لامرئٍ عمَّا قضى الله مرحلُ
فان تكن الايام فينا تبدلت ... بؤسًا بعمى والحوادث تفعلُ
فما ليت منا قناةً صليبة ... ولا ذالتا للذي ليس يجملُ
ولكن رحلناها نفوسًا كريمة ... تحمَّل ما لا تستطيع فتحملُ

فشكرهُ الامير وامر لهُ بصلة سنية وفرس كريم

[illegible]

[illegible] الامير [illegible] [illegible] رحوا [illegible]
خذوا [illegible] ورحالهم من عرب [illegible] [illegible] قاتلهم
ازوا [illegible] [illegible] وحيوانه واستاقوا
[illegible] كبير من [illegible] [illegible] الاسرى تواصلوا السير
[illegible] الى ان [illegible] واستراحوا
بلا ثم قاموا في الصبح [illegible] في [illegible] والامير
سان لا يصدق ما يرى [illegible] في [illegible] قد [illegible] من [illegible] في المحلّة
رجت النساء لتلقائهم بالدفوف [illegible] [illegible] في اليوم التالي
ولمت الولائم واديرت الخمور [illegible] الامير حسان [illegible] الامير عمر
مضرب كبير قرب مضرب زوجته [illegible] جاريتين [illegible] الاميرة هند
مضرب آخر . وكان في [illegible] من [illegible] قصيدة يمدحه بها
يذكر مناقبهُ الحسان [illegible] الاعداء ويحذرهُ من [illegible]

تجافَ عن الاعداء بقيًا فربما [illegible]
ولا تبرِ منهم كل عود تخافهُ [illegible]
اذا انت افنيتَ السفيه من العدى [illegible]
وهبْك اتّقيت السهم من حيث تتقي فكيف تتقي رميك من حيث لا تدري

ففطن الامير حسان الى مراده وظن به السوء [illegible] من [illegible] ان
خذهُ الى خيمته ويحفظ به الى ان ينظر في امره . [illegible]
أسهُ يخارها فذهبت بعقله وقام قاصدًا مضرب الاميرة هند [illegible] زوجتهُ [illegible]
ليها امرهُ فقالت لهُ الى اين يا سيئ الفعال اتريد ان تتركنا عارًا بين قبائل العرب . وامسكت
؛ وردتهُ من حيث اتى وكان يخشى صولتها وقد طلّق نساءً كثيرات قبلها اما هي فملكتهُ وكان
بلس امامها كالعبد الذليل فعاد الى مضربه سكران بخمرتين خمرة الظفر وخمرة العنب تخيّل
؛ انهُ راكب على جواده والفرسان تتسابق بين يديه يجول يضرب يمنةً ويسرةً كأنهُ
يجندل الاقران ويصيح مرةً بعد اخرى ثم يضحك حتى يستلقي على ظهره ويقوم ويسير مهرولاً

طالبًا الخروج من المضرب فيمسك بهِ عبدهُ ويردهُ الى مكانهِ واذا اكثر من الجلبة والعربدة اتت زوجتهُ اليهِ وتهدّدتهُ فيضحك لها اولاً ويحاول القبض عليها ثم يقول لها انا الفارس المموار انا قاهر عرب الفضل هه هه من اتِ حتى تقفي في طريقي تعالي يا حبيبتي هه هه هه ألا تأتين اذهبي عني يا نكاع اغربي من وجهي لا بدّ ما اطلقك وآخذ الاميرة هند لا لا بل الاميرة سلمى هه هه هه اين الاميرة سلمى اذهب يا لعين وائتني بها اذهب والاّ قطعت رأسك بهذا السيف . ثم يلوح بيدهِ كمن يستلُّ سيفًا من غمدهِ

ولم يهتم الخدم بسكرهِ لانهم كانوا معتادين ان يروهُ سكران اما زوجتهُ فخافت ان يسمع احد من الاميرات الاسيرات صوتهُ وحاولت وضعهُ في فراشهِ فدفعها عنهُ واراد الخروج لكن السكر كان قد اضعفهُ فتغلبت عليهِ هي والعبد واجلساهُ على فراشهِ ولم يعد يستطيع القيام لكنهُ بقي يعربد ويهذي ساعةً من الزمان ثم جاشت نفسهُ فاستفرغ بعض ما في معدتهِ وانطرح في فراشهِ كالميت الى ان اصبح الصباح

الفصل الرابع والثلاثون

التزلف والنفور

الاميرة هند وابنتها وولداها في خيمة سوداء من الشعر مرفوعة العماد مبطّنة بتنقق الحرير الدمشقي المخطط بالاصفر والازرق وهي جالسة على اريكة متكئة على مسند عابسة الوجه مقطبة الجبين والسيكارة في يدها والامير حسّان واقف امامها يكلمها بصوت منخفض ويسترق اللحظ الى الاميرة سلمى وهي جالسة الى جانب امها مستندة الى مسند آخر لكنها صامتة لا تتكلم وحاول الامير حسّان جهدهُ لكي يصلح منطقهُ حتى يكون بلغة مفهومة لدى الاميرة هند فقال لقد ابنت لحضرتك اننا لم نقصدك انتِ واولادكِ بسوء على الاطلاق ولم يكن لنا غرض الاّ عرب الفضل لاخذ الثار وكشف العار وانتم آل شهاب من العرب الكرام الذين يعرفون عادات القبائل ولا يرضون لها بمذلة اذا امكننا ان نرفعها عنا

الاميرة هند – انا لا اجادلك في ذلك ولا اقول لك ان لا تأخذ ثارك من اعدائك ولكن كان في امكانك ان تخبرنا حتى نرحل عن عرب الفضل او ان تخبر رجالك لكي لا يمسونا بمكروه ولا يحملوا اليك بنات شهاب سبايا كما حملونا ما هذا ظني بك يا امير ولا تستطيع ان تعتذر بانك لم تكن تعلم اننا نازلون على الامير عمر لانني ارى انكم تعلمون كل شيء في هذه البلاد

فقال لا انكر عليك انني كنت عالمًا بنزولكم على عرب الفضل وكنت احسدهم على هذا

الشرف ولكن ... بخطر ... هو ... حسين ... كنت توقعت ان يأخذ بثارنا منهم وسمعت بعض مشيخته ... فيهما لم يكن يطمع هو واظهر ... وحدك في مصر ... من بلدهم ... لا دينك لوشوشنا الى ان يبعد عن حمامهم ... وميرهم على محرب وكل حدة ... وقومه والله لا ينصر اتوه المسلمين

الاميرة هند — والآن على ... شيء عوت

الامير حسان — عي الذي تريدين ... شت ... هو ... فعلى الرحب والسعة ونحن ندافع عنك وعن اولادك بنيوسا ... وعلى حسب ... في مرضاتكم ومسرتكم وان شئتم ان نرحل بكم الى مكان آخر رحلنا وبنى ... مكان في حديقتنا وحدة لاولادك وغاية ما نتمناه رضاؤك ورضاء الاميرة سلمى ... قول ذلك وعبر ... بها

وكان واقفًا ويدهُ اليسرى على مقبض سيفهِ ويدهُ اليمنى ممسكة ... حيث يتكلم وهو كهل في نحو الاربعين من العمر قصير القامة اسود الشعر سمر الوجه ... عيناه خفيف اللحية عصبي المزاج

فقالت الاميرة هند لماذا تكلفت وانت واقف مع ... لا تجلس وتستريح

فرفع يدهُ الى رأسهِ وقال العفو يا مولاتي ... الاميرة ولكن ... امرتني بالجلوس فانا اجلس اطاعة للامر

ثم جلس مكانهُ متربعًا ووضع سيفهُ على حضنهِ ونادى خادمهُ ... فاضاء ... من الكهرباء وما سورتهُ من الكرز قصَّ منهُ مصتين واتاهم خادم آخر بالقهوة ... الاميرة هند اولاً ثم للاميرة سلمى واخويها فتناولتها الاميرة هند منهُ واما الاميرة سلمى ... عن شربها وكذلك اعتذر اخواها

ولما شربت الاميرة هند بعض فنجانها قالت لهُ يا حبذا لو كنت توصلنا الى الشام ... فنظر اليها مستغربًا وقال الم يبلغكم ما حدث في الشام فقد حدث فيها اكثر مما حدث في حاصبيا

فلما سمعت هذا الكلام صرخت قائلة ماذا تقول اقتلوا نصارى الشام ايضاً وارتجفت يدها ووقع الفنجان منها وضربت بيدها على المسند وقالت قلت لاحمد ان هذا العمل كلهُ بدسيسة والغرض منهُ قتل كل النصارى فلم يصدقني

ثم القت رأسها على يدها وقالت الله يجازيهم الله يجازي الذي كان ... السبب ما هذه

المصيبة ما هذه البلية اين اهلي الآن اين اخوتي واخواتي واولاد عمي واولاد خالي

وقالت لهُ الاميرة سلمى هل انتم على يقين من صحة هذا الخبر

فقال نعم وقد سمعتهُ من اكثر من واحد من الذين كانوا هناك وقد ارسل الينا والي دمشق لزحف مع دروز حوران على جبل لبنان فلم اشأ ان افعل ذلك لان الدروز اعداؤنا ولا اركن اليهم. ولم افهم ما هو غرض الوالي من ذلك ولا كيف استحلَّ قتل الآمنين في دار الولاية نفسها. ونحن نشكر الله لاننا في هذا السفر مستغنون عن التسام وعن النزول اليها. و لاننا الآن قاحلة لاننا في فصل الحريف ولكن متى جاء الربيع تجدينها من جنان الخلد وسترينها في ذلك الفصل ان شاء الله

قال ذلك موجهًا كلامهُ الى الاميرة سلمى

فقالت لهُ ابقى هنا الى الربيع لا سمح الله . ثم كيف نقيمون في هذه الخيام وقت المطر

فقال ان المطر لا يخرق الخيام ولا سيما اذا كانت محكمة النسج مثل هذه الخيمة . وفصل الشتاء عندنا من ابدع الفصول وسترينهُ ان شاء الله وقد سمعت انكِ تحبين ركوب الخيل فخيلي كلها تحت امركِ وامر اخويكِ وعندي مهرة بيضاء تتجلى كالعروس

ثم صفَّق بيديهِ فدخل عبد اسود فقال لهُ هات غزالة ياشيبوب لتراها الاميرة سلمى . فذهب وبعد دقائق قليلة عاد يقود مهرةً كالريم وقال لها هذه المهرة لا يعلو ظهرها احد غيركِ وهي وديعة كالحمل وسريعة كالنعامة

فشكرتهُ وقالت في نفسها لعل لهُ ابنة من عمري اركب معها . وكانت قد رأت نساء كثيرات في المضارب وعرفت ان واحدةً منهنَّ زوجتهُ ولكنها لم ترَ لهُ اولادًا وحقيقة امرهِ انهُ كان قد تزوج بابنة عمهِ وولد لهُ منها ولدان ماتا بالجدري ولم يرزق غيرهما ثم طلقها وتزوج كثيرات غيرها وكان كلما سمع بابنة حسناء يحضها الى ابيها ثم لا يلبث ان يكرهها ويطلقها وعُرف بهذا الخلق حتى كان العرب يحفون بناتهم عنهُ . فلما وقعت الاميرة سلمى في اسرهِ لم يشكَّ احد في انهُ يتزوج بها حالاً رضيت بذلك او لم ترضَ . اما هو فهابها في اول الامر وخشي ان ينظر اليها كما ينظر الى غيرها من بنات قبيلتهِ ولكنهُ لما جالسها وسمع حديثها سوَّلت لهُ نفسهُ ان يخطبها الى امها وابت عليهِ عادات قومهِ ان يخاطبها في ذلك قبل ان يريها ضروب الكرم . وكان لهُ نديم ربي معهُ وشاركهُ في كل طرق الفساد فاطلعهُ على مرامهِ فسهلهُ لهُ قائلاً انها اسيرتك وليس لها ملجأٌ غيرك ويستحيل عليها ان ترفض طلبك

وجاء الرسل من قبل الامير عمر الفضل طالبين فك الاسرى واخبروا الامير حسانًا ان

الاميرة سلمى مخطوبة لامير انكليزي . فهالهُ خبر لكنهُ لم يصدقهُ وسأل الاميرة هند عن حقيقتهِ فاستغربت ذلك ولم تسألهُ عمَّن اخبرهُ بهِ بل قالت لهُ انهُ غير مخصوصة لاحد . فسرَّي عنهُ واستدعى الرسل وقال لهم انهُ يرد ام الامير عمر اليهِ ان هو افتداها بمئة ناقة ومئتي جمل واما الاميرة هند واولادها فليسوا اسرى بل هم ضيوف عليهِ وقد ارهم على الرحب والسعة وهو اولى منهُ بحمايتهم وسيبقون في حماهُ الى ان يسكن الاضطراب في جبل لبنان ثم يردهم الى بلادهم آمنين . وكان معهُ رجال من شيوخ قبيلتهِ فاشاروا عليهِ ان يرد اء الامير عمر اليهِ حالاً حسمًا لاسباب النزاع وان ما غنموهُ من الماشية يكفي بدل ما فقدهُ تجرهم وستصوب رأيهم ونادى الرسل وقال لهم " هوذا ام الامير عمر تفذوها لا فداء ولا فكاك لكي تعلموا اننا اكرم منكم وان ليس غرضنا العداء وانما الاخذ بالثار ورد ما سلبتموهُ من رجالنا " ثم امر لها بهودج وارسل معها جارية لخدمتها . فرأوا ان لا سبيل لهم للاعتراض ولا للادعاء بان الاميرة سلمى مخطوبة لانها هي كذَّبت الخبر فعادوا من حيث اتوا

ومرَّت الايام والامير حسَّان يزيد توددًا الى الاميرة سلمى وهي تزيد منهُ نفورًا . وقد ظلم الحبَّ من سمَّى مثل هذا حبًّا لانهُ ميل شهواني دنس . وضعفت سلطة زوجتهِ عليهِ بازدياد شغفهِ بالاميرة سلمى فصار يتهددها بالطلاق كما لامتهُ . واسقط في يد الاميرة هند ولم تعلم كيف تنجو من هذه البليَّة اما ولداها فاخذتهما الغيرة والانفة وعزما على الفتك بهِ ان لم يرعوِ عن غيهِ . ولازمت الاميرة سلمى خيمة امها ولم تعد تخرج منها وقلَّ اكلها فنحلت وذبلت ومرَّت الايام والشهور وهي تزيد سقمًا ونحولاً وذاك الصاغية يزيد جرأة وحقة واخيرًا اتفق مع نديمهِ على ان يبعد الاميرة سلمى عن امها وينقلها الى خيمة بعيدة ويحضر الشيخ ويكتب كتابهُ عليها غصبًا . فاحتال النديم عليها ذات يوم واحتملها هو وخدمهُ وسروا بها خلسة الى تلك الخيمة فركضت امها حانية حاسرة الى خيمة ولديها وهي تلطم وتنوح فاختطف احدهما سيفًا والآخر هراوة واسرعا وراء اختهما فلاقاها الامير حسان ورجالهُ وقبضوا عليهما واعتقلوهما وجاء الشيخ ليكتب كتاب الامير سلمى فسأل من ولي امرها فنظرت الى قولهِ وقالت انا ولية امر نفسي ولا اريد الاقتران بهذا الرجل مطلقًا قالت ذلك وهي لا تدري كيف اتتها القوة لتنطق بهذا القول لشدَّة ما حلَّ بها من الجزع ولكن النفوس الكبيرة يظهر مضاؤها في المكاره . فقال الشيخ اذن لا استطيع ان اكتب كتابها . والظاهر ان الامير حسانًا لم يكن يتوقع هذا السؤال فوقف مبهوتًا لا يدري ماذا يفعل فاشار اليهِ نديمهُ وانفرد بهِ وقال لهُ ليس لك الا ان تذلها هي وامها حتى تصغر نفسها وتضطر ان تفتدي امها

نفسها فقال اصبت . وامر ان تخرجا من خيمتهما وتنتقلا الى خيمة صغيرة وتقدم لهما لوازم لطعام فعلا وتجبرا على اعدادهِ بايديهما من عجن وخبز وطبخ وانام عليهما الجواسيس وابقى لولدين بعيدين عنهما

الفصل الخامس والثلاثون

الاحتفال في الحرش

انبرقت الغزالة وانتشرت اشعتها على ساحل بيروت فتململ ندى الليل من حرها وتجمعت نطهُ على اوراق التلقاس كالدر وانبسطت على اوراق التوت كاغشية الحرير ثم ركبت متن الهواء طارت الى اعالي الفضاء فعطى الضباب تلك الهضاب ساعة من الزمان ثم تقشع عنها وصفا ديم الارض ووجه السماء وجفت الرمال الأَحيث وقع عليها ظل الصنوبر ثم امتدَّ الجفاف اليها كلها وعلا صرير الصراصير

ما هذه النصُب العالية وما هذا الشعاع الذي يزري بشمس الضحى · دكة تعلوها قبة فوقها سب يناطح السحاب وفي وجههِ سيوف منظومة بعضها مع بعض كالشعاع المنتشر من كوكب رّي حولهُ اكاليل الازهار وشعار الامة الفرنسوية واعلامها منتشرة ومجموعة على اشكال تى تأخذ بالابصار رونقًا وبهاءً

وما هذه الاطناب النازلة من اعلى القبة كاعمدة الصبح وقد التفَّت عليها اكاليل الازهار الرياحين وامتدت كالهواجر الى ابعاد شاسعة

الميدان واسع بين الصنوبر والبساتين في ضاحية بيروت تستعرض فيهِ الوف الجنود من هد ابرهيم باشا ومن قبل عهدهِ وهو الآن مزدحم مكتظ ترمي فيهِ الرمل فيقع على رؤُوس ناس الاَّ في دائرة كبيرة حول الدكة والنصب تركت فراغًا للولاة والقواد ورؤَساء خدمة دين واعيان المدينة وامامها مركبات المدافع والخيول مقرونة بها والجنود وضباطهم باشر للابس والحلل

بُمْ بُمْ بُمْ شهُب تلمع ورعد يصقع والناس يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق نذر الموت

بُمْ بُمْ بُمْ ارتفعت اعمدة الدخان وسردقت فوق تلك الجماهير فحجبت عنها اشعة ناجرة · ثم صمت كل صوت وسكن كل متحرك وتقشع الدخان وظهر على الدكة تحت القبة برجليل القدر بحلتهِ الحبرية حولهُ لفيف من الكهنة يسبح الله بالحان شجيَّة وتحتهُ رؤَساء لانام بملابسهم الرسمية ثياب مقصبة ونياشين تتألق في الصدور · وربات الجمال بالحلى والحلل

فوق رؤوسهم

ثلاث ساعات دام الاحتفال بتتمة ثلاث ساعات ... ساعات حتى انحل عقدهم وانفض جمعهم ... كل منهم مزدحمون لا طعام ولا شراب بين عشيتهم ... ثلاث مغيبها ولولا باعة الكعك وسقاة السوس لمات ... فقدم لهم انفر انواع الطعام والشراب

ولكن هل كان الوالي اطيب نفسا من ساقي السوس ... وجها من بيّاعة اللبن . هل كان احد من المجتمعين في ... والاحبار والتجار والشرفاء والاغنياء الذين اكلوا حتى ... كان احد منهم انعم بالاً من المزدحمين حول تلك الدائرة من ... قال احد الفضلاء ان في كل متر مربع من اكواخ الفقراء ... ما في كل متر مربع من قصور الاغنياء . ايطاليا افتر ثلث اور ... في مملكة اخرى كما تجد فيها . واسبانيا تلوها في الفقر ولكن ... اكثر من سكان انكلترا وفرنسا

والذين شاهدوا ذلك الاحتفال من اهالي بيروت وضواحيها حسبوا ان الجنود الفرنسوية احياً ت سورية وان تخرج منها ثمت اميةً فرنسا التي غنتها من زمنٍ حروب الصليب وامنية فريق كبير من سكان سورية . ومضت الشهور والجنود تزيد تودداً الى الاهالي والاهالي لا يجدون سبباً للشكوى بل لم يجدوا لاً كل ما يستحق الشكر اذ كثرت الاموال وراجت الاعمال وشيدت المباني الفخيمة في بيروت وساعدت العساكر اهالي لبنان في بناء بيوتهم المحروقة

كان هارون وتقولا التاجران قد اشتريا بساتين كثيرة في سقي بيروت واراضي فسيحة في المدينة فربحا ربحاً وافراً بارتفاع اثمانها وامتلاء سعر الحرير ولم يكن نصيب غنطوس السمسار وعبد الله الوكيل قليلاً . ورأى الحواجه بخور والحواجه شمعون ان ابتياع الاملاك اربح من تدبين النقود فعضا اصابعهما ندامةً على فوات الفرص وبادرا الى مشترى ما يمكن مشتراهُ من الاراضي التي قرب ساحة السمك اذ بلغهما ان المدينة ستمتد من تلك الجهة

واجتمع جماعة من الوجوه في بيت كبير من كبراء بيروت وكان الشيخ درويش ابو نخر معهم اتى من غير دعوة شأن كل فضولي . ودار البحث على الاحوال الحاضرة بعد ما قتل نوّاد باشا والي دمشق وكثيرين من المأمورين والضباط واعقل والي بيروت . فقال واحد من الحضور ان الافرنج رشوا الوزير حتى فعل هذا الفعل المنكر وقال آخر بل ادهُ فعل ذلك باوامر من اسطنبول لكي يسكت دول اوربا . وكان بين الحضور رجل دمشقي اتى حديثاً من دمشق وشهد ما حدث فيها فقال لهم ان الوزير لم يفعل عشر معشار ما يطلب منهُ فانا قد شاهدت كل ما حدث في الشام ولولا لطف المولى وشهامة الامير عبد القادر ما اقموا احداً والعملية مدبّرة من اسطمبول اعترفوا بذلك او لم تعترفوا ولا اقول ان القصد قتل هذا المقدار من الاهالي بل ايقاظ الفتنة لكي تتداخل دول اوربا على ما قال لي احد العارفين بدخائل الامر والظاهر ان اصحابنا لا يهمهم خربت الدنيا او عمرت اذا كان لهم غرض سياسي

فقال اهُ آخر وما هو هذا الغرض السياسي هل يريدون ان يسلموا البلاد للافرنج فبّحهم الله وقبح سياستهم وامالها كلها نفاق نفاق

وقال الشيخ درويش الحق في يد الشيخ مصطفى فاني انا سمعت الوالي يقول لمشايخ الدروز انهُ يساعدهم ويحميهم . ولما زارني في رمضان الماضي قال لي يا ابا نخر يجب ان تجتهد وتستميل الامير احمد رسلان . فعملت كل واسطة معهُ والمسألة مدورة كما قال الشيخ مصطفى ولكن ما عمرهُ خطر ببالي انها تطلع في الآخر من راس الوالي ويلقى كل اللوم عليهِ

فقال الشيخ مصطفى حبسوهُ يومين على عيون الناس وبعدها يفرج عنهُ

فقال الشيخ درويش وكان هو [illegible]

فقال الشيخ مصطفى [illegible] حتى يخفوا حدوده لا حفظه الله وكان لا [illegible] فقال آخرهم فوكلوا [illegible]

وجاء الوفد لا حد بيوت [illegible] قنصل الانكليز صحبتي وهو يترجم [illegible] الفرنسوي دخل على هذا الشيخ [illegible] من الترجمان والترجمان صاحبي [illegible]

الشيخ مصطفى — انه لا يحكم لامرنه [illegible] هنا راجت الاشغال واصلحت احوال [illegible] العسكرية كما تعلمي الدولة العلية [illegible]

فاجابهُ الشيخ درويش ان الفرنسويين لا يعفون حد [illegible] تصادقت مع كثيرين منهم وزرتني في بيتي فعرفت منهم [illegible]

وبعد اخذ وعطاء على هذا النمط قرروهم على [illegible] الجميع بالتزام السكينة الى ان يرد ما يتعلق في الاستانة [illegible] امر ذي بال فيها

الفصل الخمسون والثلاثون

مؤتمر بيروت

اجتمع معتمدو الدول الست الموقعات على عهدة باريس اجتمعوا في مدينة بيروت للنظر في حوادث لبنان وغرضهم البحث عن الجانين وعقابهم والتعويض عن جميع ما جرى عليهم بانشاء حكومة للجبل يؤمن معها حدوث ما حدث ورأى المؤتمر ان يقدم الاهم على المهم فنظروا اولا في مسألة التعويض لان الشتاء كان على الابواب واراد ان يعطي اولئك المساكين ما يسدون به جوعهم ويكسو عريهم ويساعدهم على بناء بيوتهم اذا ارادوا العودة اليها . وانتقل بهيئته الى دمشق ورأى ما حلّ بها من الدمار وقدّر الخسائر بثلاثة ملايين من الجنيهات وبعد بحث طويل واهتمام الوزير بتقليل التعويض المطلوب الى اقل ما يمكن الوصول اليهِ عيّن مقدارهُ وقيل انهُ قيمة السلوبات او ما يراد ردهُ منها وكتبت القوائم في ذلك ولكنها

كانت مأكلاً لاهل الطمع ولم يصل الى الفقير منها الاَّ شيء لا يذكر. وقد طُبع الناس على الظلم حتى وهم متساوون فيهِ وراسفون في قيودهِ يظلم بعضهم بعضاً. خُلق في الانسان موروث من الحيوان لا يفلت منهُ الاَّ قليلون. وكم من مرة وقفت ارملة مسكينة وطفلها على ذراعها امام بيت رجل كبير من اهالي بلدها تطلب منهُ ان يحنَّ عليها بجزء مما سُمح بهِ لها من مسلوباتها وهو ينتهرها ويقول لها لم اقبض شيئًا او هذا كل ما سمحوا لك بهِ ويعطيها ربع ما اخذ. ومما زاد الطين بلة ان المسلوبات قُسّطت اقساطاً وأُعطيت بها سندات فجعل الصرّافون يشترونها من اصحابها باقل من قيمتها فقلَّ ما نال اصحابها منها

ولما انقضى البحث في مسألة التعويض انتقل اعضاء المؤتمر الى البحث في المسألة الاولى اي عقاب المجرمين فطلب فؤاد باشا من رؤساء النصارى ان يكتبوا اسماء كل الذين يعلمون انهم ارتكبوا الجرائم. فارتكبوا الشطط حتى صار اعضاء المؤتمر عليهم بعد ان كانوا معهم فاضطروا ان يعدّلوا طلبهم وما زالوا يعدلون واعضاء المؤتمر يطلبون المزيد في التعديل الى ان انحصر الطلب في نفر قليل من اعيان الدروز فقبض عليهم واودعوا السجن وفي جملتهم الامير احمد ارسلان

وعاد المؤتمر الى النظر في الامر الثالث وهو انشاء حكومة منظمة في جبل لبنان يؤمن بها العودة الى مثل ما حدث فيهِ فبحث في هذا الموضوع طويلاً وقرَّر اعضاؤهُ بعد النظر والروية ان يتولَّى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختارهُ الدولة العلية بالاتفاق مع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا ويساعدهُ مجلس ادارة ينتخب اعضاءهُ سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية وقرروا سنَّ دستور لادارة الجبل على غاية الدقَّة وفرضت المساواة التامة بين جميع سكانهِ وانتهت جلسات المؤتمر في اوائل شهر مارس

الفصل السابع والثلاثون

النجاة من السجن

هذا يومك يا مسرور سيدك في السجن واخاف ان يقتلوهُ لا لانهُ مجرم مثل غيرهِ بل لانهُ كان يتردَّد على قنصل الانكليز فلا بد لك من تخليصهِ وقد عرضنا الامر للقنصل فوعدنا خيرًا وهو صادق في وعدهِ ولست خائفة منهُ بل من اولاد الحرام ان يغدروا باحمد فخذ ما شئت. هذه عشرة آلاف غرش خذها وبرطل بها السجان او برطل من تريد واذا ما كفَّت فخذ غيرها لحد مئة الف غرش وانا اعتمادي عليك بعد الله ولا تخبر احدًا على

الاطلاق بل دبّر كل شيء وحدك ولكن لا بد من العجلة لاني خائفة جدًّا ان تضيع الفرصة علينا . آه يا ربي ما هذه المصيبة من اين اتتنا هذه البدّ . قلت لهُ الف مرة ملك ولذه الاجتماعات قلت لهُ انزل بنا الى بيروت وخلصنا من اولاد عمك ومن مشايخ العقل ملت لهُ امشِ مع قنصل الانكليز مثل ما مشى المرحوم والدك فما سمع مني . الله يجازي الدين كانوا السبب الله يخرب بيوتهم مثل ما خربوا بيوت الناس . ثم يا مسرور وخذ ما شئت ولا تدعني ارى وجهك الاَّ واحمد معك (قالت له الامير احمد هذا التول والدمع ملء عينيها)

فقام مسرور ووضع نصف القيود في كمهِ ونصفها في كيسهِ وهي مئة ليرة فرنسوية وركب الى بيت الدين حيث كان امراء الدروز ومشايخهم مسجونين وجعل يتردَّد على السجان ويشرب معهُ الدخان ولما استوثق منهُ اعطاهُ عشرين ليرة فحظت عينا الرجل لانهُ لم ير في حياتهِ نصف هذا المبلغ في يدهِ واتفقا على ان يسكرا الحفراء لانهُ خاف ان يرتدوهم فلا يكتموا السر كلهم واشترى مبردًا كبيرًا من بيطار واحضرهُ الى السجان فاوصلهُ الى الامير احمد لكي يقطع بهِ القيود من رجليهِ وانتظروا الى ان كانت ليلة مظلمة من ليالي الحاق تلبدت الغيوم في سمائها وحجبت نجومها فدخل السجان واخرج الامير احمد وسار بهِ الهوينا الى ان وصلا الى الباب الخارجي فوجدا الحفراء قد استيقظوا واوقدوا نارًا اضاءت ما حولهم فعاد بهِ من حيث اتى وجاء مسرور في الصباح فاخبرهُ السجان بما جرى . ووصل الى مأمور السجن في ذلك اليوم كتاب من غير امضاء يتال فيهِ ان احد الامراء المسجونين عازم على الفرار فتعهَّد ابواب السجن واقفلها بنفسهِ وضاعف عدد الحفراء

واجتمع مسرور بالسجان فاخبرهُ السجان بما حدث فعزم ان يذهب الى المأمور ويرشوهُ ولكنهُ لم يجد اليهِ سبيلاً فعاد يفكر في الامر فلم يجد اسلم من ان يقيم مقام الامير احمد ورجع الى الشويفات واحضر عبدًا آخر من عبيد مولاهُ وصباغًا اسود واتى بهِ الى السجان ليعطيهِ للامير احمد حتى يصبغ بهِ وجههُ ويديهِ

فتمت الحيلة ووضع مسرور القيود في يديهِ ورجليهِ بدل مولاهُ وخرج الامير احمد من السجن وسار مع عبدهِ الآخر وجعلا يسريان ليلاً ويختفيان نهارًا الى ان وصلا بلاد بشارة واختفيا عند الشيخ نصار احد مشايخها ومرَّت ثلاثة ايام ومسرور يدَّعي انهُ مريض في سجنهِ لا يخرج منهُ واخيرًا دخل المأمور يفتقد المسجونين فرأى العبد مسرورًا بدل الامير احمد وشاع الخبر حالاً في بيت الدين وقامت لهُ البلاد وقعدت وقبض على السجان واودع السجن وتحدث مؤتمر المعتمدين بهذا الامر واصرَّ معتمد فرنسا على معاقبة العبد والسجان والتفتيش عن

الامير احمد ومعاتبته ايضاً وكان مؤاد باشا مؤيداً لهُ وحالفهما لورد دفرن معتمد انكلترا لأن اكولوبل رور كان يعتقد براءة الامير احمد ولو لم تكن لديهِ الادلة الكافية على ذلك وقد اعجب بشهامة العبد مسرور كما اعجب بها كل من سمع عنها . وأُرسل الرجال للتفتيش عن الامير احمد في كل انحاء الجبل وجهات الولاية ووصل بلاثة منهم الى قرية الشيخ نصّار الذي كان الامير احمد مختفيا فيها وكانوا متنكرين فلما وصلوا الى العين التي يستقي منها نساء القرية جلسوا واخرجوا زادهم وجعلوا يأكلون وطلبوا الماء من النساء ليشربوا فامتنعنَ لانهنَّ يتنجسنَ من كل من يشرب من آنيتهنَّ من غير المناولة واخيراً اتت امرأة من نساء النصارى بجرتها وسقتهم ووقفت تتحدّث معهم ووقف غيرها من النساء معها واجتمع بعض الاولاد . فاشارت عليهم احدى النساء ان ينزلوا في المنزول في دار الشيخ نصار فقالت اخرى ان عند الشيخ نصار ضيوفاً فقالت الاولى هؤلاء ليسوا ضيوفاً بل هم امير من امراء جبل لبنان وعبدهُ فاسكتتها الثانية قائلة ان هذا الكلام لا اصل لهُ والتفتت اليها وعضّت على شفتها فادرك الرجال حالاً ان ضالتهم المنشودة في بيت الشيخ نصار شيخ تلك القرية لكنهم تجاهلوا ذلك وبقوا في مكانهم الى ان انصرف النساء عنهم وقرَّ قرارهم على ان يعود واحد منهم الى بيروت يخبر بما سمعوا ويبقى اثنان منهم في القرية او ينزلا ضيفين على الشيخ نصار ليراقبا حركات الامير احمد وسكناتهِ

فعاد احدهم وسار الاثنان الباقيان الى دار الشيخ نصار ونزلا في المنزول الذي ينزل فيهِ الضيوف وهو غرفة كبيرة فيها فرش كثيرة يزورها الشيخ كل يوم ليرى النزول فيها ويسألهم عن راحتهم . ويقدّم لهم الطعام في ارقاتهِ الثلاثة من غير ان يُسألوا عن غرضهم لكن الشيخ اوجس خيفةً لما رآهما فرحّب بهما على جاري عادتهِ واخبر الامير احمد بذلك واخرجهُ سيفي ظلمة الليل من باب سري وارسل معهُ اثنين من خدمهِ ليوصلاهُ الى حدود بلاد حوران فيصير في بلاد الامان لان حوران ملجأُ الدروز وليس للدولة كلمة نافذة فيها

فسار الامير احمد معهما ماشياً على قدميهِ بزي فلاّح من فلاحي تلك البلاد الذين يذهبون الى حوران للتعيش فيها ولم يأخذ عبدهُ معهُ لئلاّ يعرف بهِ بل امرهُ بالعودة الى التويفات ليخبر امهُ بسلامتهِ وبانهُ صار في بلاد الامان . وقد كان معتاداً المشي مسافات طويلة يخرج الى الصيد في الصباح فلا يعود الاّ بعد الظهر وقد يقضي النهار كلهُ ماشياً على قدميهِ يصعّد في التلال وينزل الى الاودية ولا يشكو تعباً لا لانهُ لا يتعب من المشي بل لان خفة روحهِ كانت تنسيهِ التعب اما الآن فكان الهمّ قد انهك قواهُ واشتدّ لومهُ لنفسهِ

نهُ ما فعل حسب مشورة امهِ وانتقل الى بيروت وانقطع عن مجاراة قومهِ لا سيما وانهُ كان تقد انهم مخطئون في عملهم وكانت صورة ابنة خالتهِ الاميرة سلمى لا تزال امام عينيهِ وقد طعت اخبارها عنهُ بعد ان رحل بها ابوها عن حاصبيا ووصلهُ نعيهُ ولكنهُ لم يصلهُ من صدر يوثق بهِ ولا كتبت اليهِ خالتهُ في هذا الشان ورأى المستقبل كلهُ مظلماً امام عينيهِ لس على عين ماء في ظل صخر وغسل يديهِ ووجههُ وكان التعب قد اخذ منهُ كل مأخذ كأ على الصخر وران سلطان الكرى على جفنيهِ وحلم انهُ وصل الى بلاد حوران فاحلهُ شيخها الرحب والسعة وصار يركب مع قومهِ ويغزو العرب المجاورين ثم فوقع في ايديهم اسيرًا ضعوا القيود في يديهِ ورجليهِ وضيّقوا خناقهُ ورأى الاميرة سلمى وهو على تلك الحالة فادا مع الجواري تحلب البقر وعليها ثياب اسمال وسيدتها تشتمها وتفسرها فهبَّ كي ينقذها ا ونسي قيودهُ وسلاسلهُ فوقع واصاب جبينهُ الصخر فشدخهُ فنهض من نومهِ والدم ينزف جبهتهِ فقال هو حلم ولكن ما اقبحهُ وعاد يغسل جبينهُ الى ان انقطع الدم

شمعون — قالوا التعويضات حتى لم يبقَ منها شيء يذكر . قدّروا تعويضات الشام لاثمئة الف كيس وانزلوها الى مئة وخمسين الفًا والآن مراد الوزير ان ينزلها الى خمسة وسبعين ا فما عادت تجرز

بخور — ان الدولة لا تدفع نقودًا بل تعطي سندات عليها بالمبالغ التي يلزم دفعها ويمكننا ، نشتري هذه السندات باقل من ثمنها الاصلي عشرين او ثلاثين في المئة وهذا باب واسع بح يجب ان لا نتغاضى عنهُ

شمعون — كلاَّ وليس لنا مناظر الآن فيهِ ولكن بلغني ان مرادهم ان يفتشوا عن المسلوبات تلها ويستردوها فماذا فعل يوسف بالصيني الذي اشتراهُ وسائر الامتعة المنهوبة

بخور — صرَّف بعضها وارسل البعض الآخر الى مصر وهي مطلوبة هناك

شمعون — لقد احسن في ما فعل لانهُ بلغني ان القناصل والمعتمدين يشددون لاسترجاع كل المنهوبات . وهل تظن ان العساكر الفرنسوية تبقى هنا

بخور — لا اظن ويظهر من المكاتيب التي اتتني اول امس انهم يرحلون في اوائل الصيف كانت فرنسا طلبت ان يعين والي الجبل من بيت شهاب ولكن انكلترا اعترضت على ذلك لدولة معها ولا يبعد ان يعين الوالي من الخارج وعلى كل حال اله آبائنا معنا وهو يدبر كل الامور لخيرنا

الفصل الثامن والثلاثون

السلطان عبد العزيز

امي فقد عددتُ منها اكثر من تسعين مدفعاً ولم ابتدئ من الاول"
مام منصبين من الطين فيهما قصب قائم عليهِ قفل من الحرير حسب
ي كان الحرير يحلُّ ويلف عليها و بيدها كوفية تكبهُ عليها حتى
هي في نحو العاشرة من عمرها وليس في الغرفة التي كانت فيها غير
مطوية وبعض آنية الطبخ من كانون وقدور ومحاف — غرفة حقيرة
ذرة غبار ولا رائحة خبيثة بل بالضد من ذلك ترى امامها خميلة
لازهار الجميلة الالوان من الريحان والافسنتين والقرنفل والنل
ا في الغرفة وامتزج بهوائها امتزاج الراح بالماء. وهناك ورد جوري
تفتح لكي يخرج منها ماء الورد فان صاحب البيت بناهُ واجرتهُ كافية
ك الوقت اذ ارتفعت الاجور لكثرة المباني التي كانت تبنى بمال
ولكنهُ كان يتقاضاها يوم السبت ويسكر بها يوم الاحد و يقضي
السكر وهذا دأبهُ فتضطر زوجتهُ ان تسلك الحرير وتخرج ماء
تكتسب هي وابنتها ما يكفيهم

المدافع وانا آتية وسمعت الناس يقولون انهُ مات السلطان عبد
عند مدخل البستان فبست يدهُ وسألتهُ عن الخبر فقال انهُ صحيح
كنهُ طمن بالي

ا مدهوشة وقالت "مات السلطان" وحاولت ان تدرك معنى هذا
كرت ايام الخوف الماضية حينما قُتل رجل واحد وكيف انها هربت
لما وتأخر ابوها عن الرجوع الى نصف الليل فقلقوا عليهِ. لكنها فهمت
نها وقال لها انهُ ليس هناك ما يخشى منهُ. وهو رجل صالح وكل الناس
ر سنهِ ولصلاحهِ فصمتت ولم تقل شيئاً ولكنها بقيت تنظر الى امها
اذا كانت مطمئنة او مضطربة

، صوت اطلاق المدافع وكان جرجس يكيل ثوباً من القماش
ذرع وهو جالس متربعاً في دكانهِ بسوق البزركان والدكان مرتفعة

عن ارض السوق قدر قامة شخص حدث يبلغ ثمانية عشر او عشرين قيراطاً متاراً معلقة فوق الدكان في طرفين منه من شمس وبحر ولا يمكن ان الشمس ان يكاد يصل الى الارض وارتفاع الدكان عن ارض السوق متر يخيل من السيل الذي يجري في اسواق بيروت كلما اشتد وقوع المطر فيها فسمع صوت المدفع فجفت يده وبس الكيال ورد الثوب الى مكانه وجاءت امرأة فسدلت منديلها على وجهها وصارت تشتري ضربتها مسرعة واتفق ان مر رجل من اتجار الكبار في تلك الحسة وكان جرجس يعرفه ويتوقعه وسأله عن سبب اطلاق المدفع فاخبره في الحال ان السلطان عبد المجيد وصهره السلطان عبد العزيز فسأله جرجس هل من خوف عليه فرفع شاربه وشد سفتيه سترة من يقول لا اعلم ولكن الامر لا يخلو من الحذر وكانت عدة الدكاكين معدودة قد تطلعت كلها لتسمعوا ما يقوله التاجر ولم يكد جرجس يرى شدته حتى نزل من دكانه ورفع المدرندين وانزل الغلق الاعلى ورفع الاسفل واقفل الباب واقتدى به كبار اصحاب الدكاكين ولم تكن الا دقائق قليلة حتى لم تعد ترى دكاناً مفتوحاً في تلك السوق والتفت كثيرون دكاكينهم في سائر الاسواق واسرعوا الى بيوتهم وجعل الناس يتكلمون همساً ولا يجترئ احد ان يرفع صوته كأن آثار الجور والظلم رسخت في نفوسهم رسوخ الصبغ وتوارثوه خلفاً عن سلف فلا يحدث حادث حتى تراهم يذعرون ويهربون الى بيوتهم كأنه فعل عصبي منعكس لا دخل للادارة فيه ولا لقوة اخرى من قوى العقل

وكان نساء مسلمات ومسيحيات في مار الياس يفين بنذورهن فسمعن اصوات المدافع وجعلن يضرعن الى مار الياس او الخضر لملفف منهن وفي عيونهن وهن في دورهن سواء كانهن من مذهب واحد لا فارق بينهن

وخرج ابو نفر من بيته ليسأل عن سبب اطلاق المدفع وتلقى بالشيخ مصطفى صاعداً من المدينة فاخبره بموت السلطان عبد المجيد وتنصيب السلطان عبد العزيز فقال الحمد لله نجانا الله من احتلال الفرنسوية لبلادنا واعطانا سلطاناً لا يفضل لافرنج عليه

فقال له الشيخ مصطفى ومن قال ان السلطان عبد المجيد كان يفضل لافرنج عليه وجائز الظاهر انك غائب عن البلد ألا تعلم ان كل هذه الحركات والقلاقل مسببة عن ذلك ولكن هذا سر لا يعرفه غيري اطلعني عليه الوالي لما زارني في رمضان الماضي

والتقى مارون بنقولا وقال له لم نستفد فائدة تذكر من مجيء الفرنسوية ولم نكد نفرح بمجيئهم حتى خرجوا عن آخرهم واخاف ان تهبط اسعار العقارات التي اشتريناها

ن ان سياسة الانكليز تغلب سياسة الفرنسويين
ت من الاول ان الانكليز غير راضين عن مجيء العساكر
، بقرش واحد لان سياسة الانكليز دائماً غالبة ألا تتذكر ما
كانت معهُ ولكنهم قوّموا اوربا كلها عليهِ حتى ألزموهُ ان
مصر
لا أرى ان الاسعار هبطت ولا هي مائلة الى الهبوط واسعار
لا بدّ ما تصطلح الاحوال في ايام السلطان الجديد
في الاحوال الحاضرة فقال شمعون كتب اليَّ ابن خالتي من
ـ سيستدين اموالاً كثيرة فتروج الاشغال وتكثر المكاسب في
تب لك ذلك والسلطان لم يجلس الاَّ امس . فاجابهُ شمعون انهُ
سية . ولكن ابن خالتي وكل اصحابنا في فينا وباريس ولندرا
، عبد العزيز من قبل ان يتولّى وامور مثل هذه لا تخفى عليهم
لعلماء في دار رشيد افندي وهنّأ بعضهم بعضاً بانفراج الازمة
ا وخرجت الجنود الفرنسوية من بلاد الشام وجلس السلطان
لنة بعد ان وعدهم المواعيد الوثيقة انهُ يكف ايدي اوربا ولم
دّروا . واعترض احد العلماء على ذلك بان الجنود اسرعت في ما
الامكان ان يفعلوا غير ذلك . واجمعوا على تقديم الشكر لفؤاد
ذي انتدب لهُ
البارلمنت الانكليزي فاشارت الى وفاة السلطان عبد المجيد
. وذكرت الاول بفضائلهِ واشارت الى ا ف الامة الانكليزية
من النفع منهُ لبلادهِ وشكرت فرنسا على ما أبدتهُ من الغيرة
والى حفظها لوعودها واخراج جنودها منها حالما استتبّ الامن
ية تعقيداً
مجلس النواب بفرنسا فاعترض زعيم الراديكاليين على خروج
ة ولمح الى ارتشاء قائدهم فانتهرهُ رئيس المجلس واشتدّ الجدال
خيراً طلب الرئيس الاقتراع على الثقة بالوزارة فكانت الاغلبية
ي مجلس الشيوخ فلم تلقَ من الاهتمام ما لقيتهُ في مجلس النواب

[illegible]

[illegible] وكان فؤاد بك قد ارسل [illegible] كان مستعداً لاستقبالهم حينما [illegible] ان الوقت والتفت كولن الى [illegible] شر دقائق وهو يشير على عيونه من ولاة [illegible] سرهنري وقال على هذا جمع رائع

فقال السرهنري لا بدّ لي من الذهاب بنفسي فقد [illegible] قائم مع الشيخ اسمعيل لاطراق بعودة الامير عمر الدعور على [illegible] دور الدائرة فان لا بد حسناً بيري صخر ورس عمر [illegible] اسره فتجرّع مرارة بذل فذ رأى ان لا قبل له [illegible] نوبًا او شرقًا وزاد في ادلاله الى ان ترضى بو روحه [illegible]

فقال الكولونل وكيف تذهب بنفسك واكانت [illegible]

السرهنري — يا حبذا لو امكنني ان آخذ فرقة من الجنود [illegible] مدّ كل واحد منهم بثقة من البدو لتمين اسلحتهم السيف والرمح و [illegible]

الكولونل روز — ان ذلك غير ميسور لانهُ لا يجوز [illegible] جنودًا في بلاد الدولة [illegible] بقرار دولي خاص . ولا يزال البارلمنت مجتمعًا فاذا سمع الاحرار انا اخرجنا جنودنا [illegible] براقاموا الدنيا واقعدوها متخذين ذلك حجّة ضد المحافظين لاسقاطهم من الوزارة . ولكن قد نستطيع ان نطلب من الوالي فيعطينا فرقة من الجنود التركية

السرهنري . وما ادرانا انهم لا ينضمون الى بني صخر فنخرج من شر ونقع في شرين

الكولونل — هذا بعيد الاحتمال لانهم اميل الى الدروز منهم الى البدو وليس لهم مصلحة

خصوصية في الانضمام الى هذا الفريق او ذاك ولا بدَّ ما يفعلون بامر الوالي

فصمت السر هنري وفكَّر في الامر هنيهة ثم قال اظن ان هذا هو الرأي الصواب فنطلب من الوالي مئتي فارس وانا اقوم بنفقاتهم

فقال الكولونل ولا اظن انهُ يمانع اذا ذهب معك عشرة من الجنود البحّارة لحمايتك

ووصل فؤاد باشا في الميعاد وكان راكبًا جوادًا مطهمًا وامامهُ ووراءهُ كوكبة من الفرسان فلاقاهُ الكولونل الى باب المنزل وتصافحا وسلم على السر هنري مصافحةً لانهُ كان قد رآهُ مرارًا في المخابرات السابقة وجلس الثلاثة في غرفة الاستقبال يدخنون التبغ الجبيلي ويتجاذبون اطراف الحديث باللغة الفرنسوية فاظن فؤاد باشا ان مهمتهُ قد انتهت ولا يبعد ان يعود من سورية قريبًا وشكر للكولونل روز وللسر هنري ما ابدياهُ من المساعدة لهُما وحكومتهما . واستطرد الكولونل روز الحديث الى احوال الدروز في جبل حوران واحوال البدو المجاورين لهم . فرآهُ عارفًا بما بينهم من الضغائن وبنشوب الحرب بين عرب الفضل وبني صخر وبانحياز الدروز الى عرب الفضل وحاسبًا ان هذه الحرب ستضعف الفريقين فيسهل كبح جماحهما والتسلط عليهما فاخبرهُ الكولونل ان في اسر بني صخر اناسًا يهمُّ السر هنري انقاذهم منهم ويودُّ ان يذهب اليهم بحامية من الجنود العثمانية

فاستحسن فؤاد باشا ذلك وعرض عليهِ خمس مئة فارس يرسلهم مع السر هنري فسكرهُ السر هنري على ذلك وانتقلوا الى الكلام على حكومة لبنان وغرض فرنسا من رد ولايتهِ الى الامراء الشهابيين واعتراض اللورد دفرن على ذلك فاظن فؤاد باشا انهُ كان يفضل ان يقسم الجبل الى قسمين يضاف قسم منهما الى ولاية دمشق وقسم الى ولاية بيروت . فبيَّن لهُ الكولونل ان الدول الاوربية لا توافق على ذلك فليس من الحكمة محاولة اما البقاع فلا بأس بضمهِ الى ولاية دمشق لان اكثر سكانهِ من غير المسيحيين

ولما انتهت الزيارة قام فؤاد باشا فودَّع بما قولٍ بهِ من الاكرام

الفصل الاربعون

فصل الحطاب

مرَّ على الامير احمد اياما لم يرَ اشد منها الى ان خرج من حدود الشام ودخل بلاد حوران ولم يكد يصل الى تلك البلاد حتى التقى بجماعة من دروز لبنان فعرفوهُ وساروا بهِ الى الشيخ اسمعيل الاطرش فرحب بهِ واكرم وفادتهُ وانزلهُ في افخر بيوتهِ واقام جماعة من رجالهِ على

خدمته والتفّ حوله كثيرون من دروز الجبل وشيعته المتبعين هربوا من لبنان وكانت عيون الشيخ اسمعيل تستقط الاخبار وتأتيه بها من كل ناحية فلا يجري شيء في دمشق ولا في لبنان ولا في بيروت ولا في بلاد الجولان كلها الا ويأتيه خبره وكان لما اصدقه في بيروت يرسلون اليه بما يبلغهم من اخبار الاستانة واخبار البلدان الاوربية فيقف على هم الاخبار السياسية. وقد بلغه كل ما حدث في مؤتمر بيروت وما قرّ عليه قرار عضائه من احبار والي سيجي للجبل من غير طوائفه فاخذ يتداول مع الامير احمد في طريقة لارجاع دروز الجبل الى بيوتهم فقرّ رأيهما على ان الامير احمد يكتب الى قنصل لاكليز الجنرال سيف بيروت يطلب منهُ ان يتوسط امرهم عند ولاة الامور فكتب اليه واخبره عن احوال بلاد حوران وما جاورها

ولما بلغ الامير احمد ما حلّ بخالته واولادها بعث رسلاً الى الامير حسان امير بني صخر يتودّد اليه ويخبره ان الاميرة هند خالته ويطلب منهُ ان يطلق سبيلها وسبيل اولادها وارسل مع الرسل هدايا فاخرة من منسوجات دمشق واسلحتها. وكان الامير حسان غائباً في بعض معازيه فانتظره الرسل الى ان عاد وقدموا اليه الهدايا وسلموهُ كتاب الامير احمد فلم يخفِ عليه ولا قبل الهدايا لان الاميرة هند واولادها كانوا يسمعونهُ مر الكلام فاضطر الرسل ان يعودوا فارغين ثم اوعز الى بعض اعوانه فاقتفوا اثرهم وقتلوا واحداً منهم وسلبوا ما معهم فعادوا وحدوا ما جرى لهم فارغى الشيخ اسمعيل وازبد وكتب الى الامير عمر امير عرب الفضل انهُ يجدهُ بخمس مئة من فرسان حوران اذا قام لمحاربة بني صخر ودارت المراسلة بينهما ثم اجتمع الامير وحضر الامير احمد معهما وقرروا خطة الهجوم

وفي الوقت المعين خرج فرسان الدروز من حوران وواصلوا السير الى ان المواعيد عجلون فالتقاهم الامير عمر وانزلهم على الرحب والسعة واولم لهم ولائم ثلاثة ايام حسب عادة الضيافة عند العرب وقاموا في اليوم الرابع وساروا اربعة آلاف فارس ومعهم الخيل تحمل الزاد والماء وقصدوا البلقاء وكانت اخبارهم قد وصلت الى الامير حسان فجمع رحلهُ وحلاهُ وخرج للقائهم في سهل فسيح يبعد عن الجبل الذي كان ممتنعاً فيه نصف مرحلة

ونام الفريقان تلك الليلة في السهل يفصل بينهما غدير صغير وخرائب مدينة قديمة . نام الخليون واما الشجيّون فاحيوا الليل بين احلام مرعبة وهواجس مزعجة - الامير حسان متضيّر من تلك الواقعة لان غراباً مرّ عن يساره حالما خرج من مضربهِ وزجرهُ فلم يزدجر والشاعر الذي غنّاهُ بالامس ابتدأ نشيدهُ بقولهِ " يا دار غيّرك البلى " واليوم الذي اضطرّ ان يخرج فيه

سهِ وقال في نفسهِ ان دارت الدائرة على رجالي عدت الى المضارب
ها ولو عيرني العرب ابد الدهر لانهم سبب هذه البلية . ثم اغمض
نبض سيفهِ فارتخت اصابعها ووقعت فعلم ان جوادهُ عثر بهِ في حومة
مذعورًا . ثم عادت بهِ الهواجس الى فيافي الخيال ففكَّر بالاميرة
لب النياق والدمع قد قرَّح جفنيها فادارت وجهها عنهُ خجلاً منهُ او
اللئام اذا رأوا الضعيف ذليلاً بين ايديهم وفكَّر باخويها وقد صارت
ُ شفقة عليها ولا رثى لحال امهما بل احتدم غيظًا على زوجتهِ لانهُ
م من طعامها
يفكر الاَّ باخذ الثار وكشف العار وتخطر ببالهِ الاميرة سلمى فيردد

مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاءً جميلا
ايع اليها صعودًا ولن تستطيع اليك نزولا

منهُ اليها ابن خالتها وذلك الامير الانكليزي الذي اخبرتهُ عنهُ
العهُ لانهُ اوقعهُ في حب فتاة لا يستطيع الوصول اليها وعزم ان
يسقيهُ دواء السلوان(١)
حمد يطير فرحًا لان التقادير يسَّرت له ان ينتشل عائلتهُ واولادها من
ذلك لا بدَّ وان يلين قلب سلمى ويزيل منهُ كل اثر من حب ذلك
تحلَّى عنها وتمَّت السعادة مع انهُ من اقدر الناس على نجاتها كيف لا
البحر وكلمة واحدة منهُ للوالي تقيم البلاد وتقعدها ولا بدَّ لي من ان
ـ تجويلهُ
يكن يفكر الاَّ بتحالُف رجالهِ مع عرب الفضل حاسبًا ان ذلك يعزز
ا من تشديد الوطأة في طلب المتأخر من الاموال الاميرية . وكان قد
ـ نفر قليل من رجال الجبل وعفت عن الباقين فلم يبقَ لهُ همٌّ الاَّ ان
ية وودَّ ان تنتهي هذه الواقعة باسرع ما يكون حتى يعود رجالهُ الى

---

(١) يسقاهُ العاشق فيموت حبهُ

ولم يكد ذنب السرحان يعلو فوق الافق حتى بح معسكر ... وملأ الجبل صياح وهدير ... واشتدت الضوضاء وجعل العريشان ... يتسمعون فرحين ... نسائم وكان أمة الامير عمر واتباع شمعون قد ... حيث ... في حصنه ... يتهيأون التالدان خطة امحوه ... الامير حسن ... كل ... من تلك ... وكل بقعة ومسيل ... مشيخته ... خطة ... بلدهم ... الكمين الذي ... تكد شمس تدرج من ... الى ... اطلاق البنادق وحضوا في ... وصاح لابطل واصطدم ... وكسرت سوق الرمح ... العقبان و... ووقفت الضباع في ... ية متململ الجبين وهو يقول لا تطيل ... الشمس واشتد المحير واخرب ... الاصلال من وقع سنابك الخيل وتعذر ... اليرابيع . وبينما الجياد تكد تسبح في عرقها ... ما ولم تكد الشمس تميل عن الهجرة حتى ظهر ... ون خطوة ويتأخرون خطوتين ... ين في وجوههم وفي اقفيتهم ... لاد . وكان الامير احمد اسرع ... حوران فجعل يفتش عن حاشيته ... يكد يصل اليه حتى علت ... تار من مكمنه في تلك ... الامير حسان ... إلا الصبر في ذلك المأزق الحرج فتستمر ... الامير حسان ورجاله . ويالها من ساعة تكسرت ... جاح وتطايرت الجماجم عن الابدان واشتبكت الجثث ... ن الموت الزؤام ويحسبون ان لامناص لهم من شرب كأس الحمام وقد زرقت الربى ... جيوبها وادارت المنون عليهم خطوبها علا الغبار من الشمال فظنوه اعصاراً وماج بالفرسان فخالوه تياراً . وقال كل لسان الدولة الدولة جنود النظام ... فرسان

فريقان في مَن المعنيُّ بهذه الغارة ورأوا فرصة للكف عن القتال
ة الحال ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى وصلت الفرسان وقد عقد لواءها
يش العثماني ومعهُ السرهنري بدمونت ونفر من الجنود البحارة فوقعت
حمين فانفصلا ووقفا منتظرين الاوامر ولما تم انفصالهما نادى سليم باشا
والشيخ اسمعيل فاقتربوا منهُ وترجلوا في حضرتهِ فامرهم بالركوب ثانية
فلم يكن مجيب واخذ رجالهُ يفتشون عنهُ فوجودهُ ملقى بين صخرين
ن جوادهِ الواقف امامهُ . فانهُ اصيب برصاصة في صدرهِ فصرعتهُ
فحملوهُ الى امام سليم باشا مغمى عليهِ لكثرة ما نزف من دمهِ وبادر
ومواساة الجرح وعادوا بهِ الى مضربهِ فاسلم الروح وهم في الطريق
عم الامير عباس فنصبهُ اميرًا على قبيلتهِ

الخاتمة

عباس بالرياحين وازهار الخريف وانتظم فيها عقد جمهور منتخب من
اء الشهابيين والارسلانيين ثم حضر والي بيروت ومتصرف لبنان
ة من قسوس اللاتين واقتصر الاحتفال على هؤلاء بسبب الحداد
جوَّبت سعينة الدير فلم تحملها فعادت الى بيت ابيها وخرجت الاميرة
على ذراع عمها واتت امها وابنة عمها وراءها والدموع تتساقط من
ي ووضع يدهُ في يدها فكالهما القاصد الرسولي واهديت اليهما الهدايا
وجدها الامير احمد في المغارة

، الى امهِ تلك الليلة يصف لها حفله اكليلهِ وقال انهُ وجد اسلحة جدهِ
يها الوتيقة وعليها ختم الملك ركاردس قلب الاسد فلا شبهة في لتبهِ
وطلب اليها ان تعرض ذلك على جلالة الملكة وتطلب منها ان تلقبهُ
ن

To: www.al-mostafa.com